حرب الشيخ أحمد

مروان الغفوري

رواية.

2020

إلى هيلين التي رأت السفن،

إلى صوفيا التي جلبت الأمواج.

موت الشيخ أحمد

لمّا وصل الشيخ أحمد إلى أعلى الجبل ورأى الحرب من هناك أدرك أن حياته في الوادي كانت عبثاً.

وبالأمس القريب توفي ذلك الشيخ، وعند موته لم يكن معه من الرجال سواه.

ساعة موته لم يكن هناك من أحد يعرف كيف جاء إلى الدنيا. مات كل الذين عرفوه، ثم مات كل الذين عرفهم. وبقي هو يحتَضِر تارة، ويؤجل موته تارة أخرى إلى أن سئم كل شيء. في آخر أربعين سنة من عمره توقف عن التحديق في الحرب وكفّت ابنته عن صناعة السفن. جلس في ديوانه ينتظر الخبر الأعظم ورجاله الذين لن يعودوا. وكلما مرّ عام انتظر الذي خلفه. ثم صار يصعد إلى سقف داره كلّما حل الشتاء ويصرخ في الأعوام كي تمضي مسرعة ولكنها كانت تتمهّل. لم يكن الشيخ أحمد بالرجل الذي يطيق صبراً، ليس الآن ولم يتبق له من العمر إلا القليل. وعندما تيقّن أن الخبر الأعظم ربما لن يأتي راحَ يشاغل نفسه ويستطلع جسده ريثما يصل الموت. لكنّ شيئاً مما كان زاهياً في صباه لم يعد يطاوعه، لا إربه ولا الشعر ولا النظر.

ويا لها من حياة يا شيخ أحمد.

ثم جاءه البشير مهرولا.

كان يصرخ بأعلى صوته: يا شيخ أحمد، يا شيخ أحمد. كان الشيخ مستلقيا في ديوانه ينظر إلى السقف، ولا ينتظر شيئاً. ولما سمع صوت البشير فهم كل شيء وتفجرت الدموع البطيئة البيضاء من عينيه، وقال لنفسه لاهجاً ومختنقاً "أربعون سنة يا أحمد، أربعون سنة".

أجلَس نفسه، وضع عمامته على رأسه، أخذ عكازه وهم بمغادرة ديوانه لكنه تعثر بالإناء الذي يتبول فيه فاندلق السائل الأصفر وملأ أرض الديوان. واصل البشير نداءه، الشيخ أحمد يحدق في أرض الديوان وفي الرائحة الصاعدة ويبتسم. كانت رائحة من ماضيه، كان البشير من ماضيه، وكان أحمد هو الماضي الذي يأبى أن يموت. هبط درجات منزله حتى الأسفل، ثم استدار وصعد إلى السطح، وبقي يحدّق في الأشياء. يحدّق بما بقي له من ضوء في العينين ولا يدري ما الذي ينبغي عليه أن يفعله.

راح يغمغم: هذه أكبر، هذه هي الكبرى.

أخذت الحرب تزحف شيئاً فشيئاً حتى اقتربت من الجبال والمدن، من كل الجبال ومن كل المدن. جاءت من البحر أول الأمر ثم من كل مكان، ودخلت وادي الخضِر عبر الأسفلت كما توقع الشيخ أحمد في غابر الأيام. داهمته السعادة حتى أخمص

قدميه، عاد إليه كل ماضيه ثم طاوعه كل شيء، إربه والشعر والنظر. ولكن بما أن الحرب الكبرى التي صلى لأجلها قد أهلّت فإن كل تلك السفاسف التي طاوعته فجأة لم تعد تعني له شيئاً.

ستغمره السعادة كما لم يحدث من قبل، وسيموت لفرط سعادته.

سيموت الشيخ أحمد ميتة يتمناها أي كهل في العالم:

يضع ساقاً على ساق ثم يحتضر بهدوء، تاركاً الحرب في الخارج.

ولو شاء أحمد، لو شاء أحمد، لعاش إلى الأبد.

الليل والمؤذّن

قبل أن تضع السعادة حدّاً لحياته كان الشيخ أحمد يتابع أخبار الحرب الكبرى من خلال ألسنة زائريه في ديوانه المطل على طريق المواشي والسيول. لم يكن يسأل عن الجيوش ولا القادة، فالحرب بالنسبة له مستقلة عن الأسماء وبمقدورها أن تقع في غياب البشر. لم يكن يعنيه، وقد علم أنه يخوض أيامه الأخيرة، سوى أمر واحد: أنها حرب كبيرة، وأنها أكبر من سائر حروب أهل اليمن. وكان يقاطع زائريه صائحاً: لن تأتي بالخير سوى حرب كبيرة تأكل ما سواها من الحروب. بيد أن شيئاً ما كان يقض سكينته. فقبل أربعين عاماً، وفي لحظة وهن، تحدّث عن الحرب إلى امرأة.

عايش حروباً كثيرة في هذه البلاد وتعلّم أن حروب السهل أقل مهابة من حروب الجبل، وأن مقتل القادة لا يفسد الحرب ولا يهتك نواياها. وهذه الحرب انتظرها طويلاً، انتظر علّها تكون خاتمة الحروب كلها. تعلّق بتلك الأمنية في كبره. أما في شبابه فكان يقول إن الله خلق الحرب أولاً ثم الأرض، وبعد ذلك وضع إحداهما على ظهر الأخرى، وأنهما ستعيشان هكذا حتى آخر الأيام: الحرب في الأعلى والأرض في الأسفل. الأرض في الأعلى والحرب في الأسفل، دواليك. وكان يقول إن حرباً ستخرج من عدن، آخر الزمان، وستسوق الناس أمامها كالمواشي حتى يبلغوا أرض المحشر. وكان زائروه

يقولون إن أصوات المدافع اليوم أقرب من الأمس، وأن الرعيان الذين ذهبوا يستطلعونها رأوا بحر عدن.

جاء الشيخ أحمد من مكان بعيد، كان لا يزال صبيّاً، ونزل بالوادي. وعندما تقدم به العمر ولم يعد يدري هل مضى القليل أم الكثير من أيامه ترك الوادي وصعد إلى الجبل. وكان يقول إنه يفرّ من أقدار البشر إلى أقدار الله.

تتوسط الوادي سوق كبيرة، وتتوسط السوق شجرة مسنة يقال لها شجرة الغريب وأحياناً شجرة الخَضِر. هناك تباع الخضرة والماشية وأشياء كثيرة مما يحتاجه الناس في الجبال والوديان مثل القماش والتوابل والحبوب، وكذلك المواشي والأجبان. تقام السوق الكبيرة مرّة في الأسبوع، في يوم الأحد. أما في سائر الأيام فتخف الأقدام، ويبقى البيع والشراء عند حدوده الدنيا. ينزل أهل الجبل بالقات والقمصان الجبلية والحكايات، ويعودون بالتوابل والحبوب والقصائد. لاحظ الشيخ أحمد، وهو في الوادي، أن لأهل الجبل قاموسهم الخاص عندما يتحدثون عن الحرب. بالنسبة لهم فالحرب شيء مهيب أكبر من الأقدار، وأنها من سخط الله. لا يذكرون الحرب إلا ويذكرون معها الجن والخالق والرياح. أما أهل الوادي فالحرب بالنسبة لهم سوق، مثل كل الأسواق، يخسر فيها أناس ويربح آخرون. ولا يذكرون الحرب إلا ويذكرون

معها الأقمشة والأولياء والسيرة النبوية. ومهما أخذت الحرب من الأرواح فإن النهر سيواصل تدفقه، النهر الصغير الذي يفلق الوادي إلى نصفين، وسيحصدون في الموعد. الجبليون يرون الحرب من الأعلى، أهل الوادي لا يرون منها الشيء الكثير، يرونها من المقدمة أو من مؤخرتها. يدخلون فيها دون أن يكونوا قد أبصروها على حقيقتها، وتغادرهم دون أن تمسّهم. هذا ما لاحظه الشيخ أحمد مبكّراً وأنكره أول الأمر، وفكّر ملياً ولكنه لم يفهم شيئاً. ثمّ كفّت الحرب عن الوصول إلى الوادي، وبقيت تدور في مطارح أخرى مما اضطر الشيخ أحمد للبحث عنها وملاقاتها من حين لآخر. على الأقل كان ذلك ما سمعه الشيخ أحمد من أفواه أقدم الرجال الذين أسلموا أرواحهم للحُمّى الواحد بعد الآخر.

واحتراماً لمعنى الحرب ومهابتها كان يردد: لا ينبغي أن تؤخذ أخبارها سوى من أفواه الرجال. وكان يفكّر بأهل الجبل. الحروب، عند الشيخ أحمد، تُروى من رجل إلى رجل، وليس من رجل إلى كل الناس، ولا من رجل إلى امرأة. حتى حين تروى لا بد أن تكون منازلة فردية، الصدر إلى الصدر، وإلا لأشبهت الوليمة والمولد. في الوادي أهينت الحرب، يعتقد أحمد الذي جلس في الجبل ينتظر. ذلك أن رجال الوادي راحوا يروون أخبارها إلى نسائهم. وكان ذلك جسيماً، كان جسيماً جدّا.

بالنسبة له فالحرب هي الحرب، تجيء وتذهب. دائماً تجيء وتذهب. وهي ليست مسرحاً للأبطال ولا للمجرمين، بل مكاناً تعبث فيه النجوم بأرواح القبائل. هكذا تبدو الحرب من الجبل: على صلة وثيقة بالكون، بضياء النجوم وحركة الأمواج. قيل له هذا الأمر مراراً وهو لا يزال يافعاً في الجبل الذي سيفرّ منه. وبعد أن توغل في الوادي وأنفق نصيباً من عمره هناك نسي ما قيل له هناك وصار يتذكر أرواح القبائل وينساها. وفي الجبل، في آخر جبال الشيخ أحمد، سيعود إليه ماضيه، ستعود أروح القبائل وروائح النسوة اللاتي فقدن أزواجهن، وسيرى أُمّه. ولكن الحرب ستصبح شيئاً آخر، شيئاً أرضياً غير متصل بالنجوم والكواكب بل بالخوف وبأشياء ربما أقل تفاهة من الخوف، أو أكثر جسامة من الماضي.

في أسفل الوادي، قريباً من المدينة، ثمّة مقهى أطلق عليه "مقهى الحاج زُط"، وهو مطرحٌ على طريق المسافرين. هناك يدور الحديث حول كل شيء. عادة ما كان المسافرون ينقلون أخبار الحرب والسياسة. وكان الشيخ زُط إذا وصل متأخراً ووجد الرجال في مقهاه يقول بصوت عال "مرحباً بالرجال، هل من حرب جديدة؟". كان المقهى هو جريدة الوادي، منه ستنتقل الأخبار إلى باقي الوديان أولاً ثم إلى الجبال. وكان الشيخ أحمد، إذا غيّر وجهة نظره عن الحرب، يحاجج قائلاً إن الناس تقوم على الحاكم الظالم لأنه ليس ظالماً بما يكفي، وينقلبون على الطاغية إذا كفّ عن طغيانه.

إن أولى أسس العدل أن يتمكن الحاكم من كسر كل السيوف ليحقق المُراد الأول للإله: المساواة بين البشر في الظلم والعدل. ولن يتسنى للحاكم ذلك سوى بالبطش. دائماً ما يسند هذه الفكرة بقول الله "وإذا بطشتم بطشتم جبّارين"، ثم يمضي النقاش على نحو جيّد. فالآية هُناك والشيخ الذي يعرف الكثير هُنا، والمسافرون متعبون يقولون الخبر ولا يجادلون حوله، والآية القرآنية إذا دخلت في الموضوع فإنها تحسمه حتى إذا لم تكن على اتصال به، مثل آية الجبّارين. لم تقنع فكرة البطش رجلاً كان قد ربط كبشين بالقرب من المقهى وجلس.

انتظر الرجل قليلاً ثم قال:

"إن كان ولا بد من البطش فليكن بطشاً حكيماً".

هزّ الشيخ أحمد رأسه، وتحركت لحيته التي كان الشيب قد ضربها من الحواف، وظن الرجل أن الشيخ أحمد يقهقه. قال الشيخ إن بطش الحكام هو في كل الأحوال عمل حكيم بالنظر إلى نتائجه. تداخلت الأصوات وقال الحاج زُط، وهو يتناول الفنجان الفارغ من أمام الشيخ أحمد، إن البطش كلمة ترعبه أكثر من الحرب، وإذا خيّر بين البطش وبين الحرب فسيختار الحرب. وضحكوا عدا الشيخ أحمد.

عادة ما كان الشيخ أحمد يغيّر وجهة نظره عن الحرب. يفرّ منها ثم لا يلبث أن يتذكر شيئاً ما فيها فيعود لملاقاتها. هي قدر الله إن كان أحمد يشعر بالتعب، وقدر البشر حين يكون في أفضل حالاته النفسية.

ولمّا وقف على مشارف المائة عام أو أكثر كانت قد بقيت له سن واحدة فقط. قال إنه خسر أغلب أسنانه في السهول وهو يروي للناس عن هزائم الأتراك، وعن مدافع الإنجليز. يروي الشيخ ما يحلو له، فالذين عاشوا معه هلكوا واحداً تلو الآخر. بقي هو وحيداً، بسِنّه الشاهدة على الأتراك، وبذاكرته المليئة بالحروب التي حدثت والحروب التي لم تحدث. في الجبل، بعد أن انتصف عمره، سيحكي وسيبدل التاريخ كما يحلو له، فما من شاهد على تلك الدنيا سواه. الآخرون ذهبوا. وكان إن أسعده الكلام الذي يرويه، وهو يرى الشفاه المدلاة والعيون المحدّقة، يقفز إلى السيرة النبوية ويخترع معارك عظيمة يموت فيها الآلاف. حتى إنه في إحدى الليالي فكّر أن يغير اسم النبي إلى اسم يليق بوحشية المعركة التي يرويها، ثم تراجع عن فكرته وغيّر اسم أبي بكر. قال إنه هرب. غمغم الجالسون متسائلين "أبو بكر هرب؟". تمهّل الشيخ بعض الشيء ثم قال "أبو بكر هرب، نعم هرب أبو بكر".

قاتل الشيخ أحمد في صباه وأخطأته الحرب مراراً مما ألحق العار بأهله. ومنذ وصل إلى الوادي وألقى السلام على امرأة تجمع التين وتسوق الأغنام لم يذهب إلى معركة مقاتلاً. في صباه سمع جدّته تلاطف جّده وتهدئ من غضبة قائلة "لا تفقد إيمانك به، بإذن الله سيُجرح في الحرب القادمة أو سيقتل". وكان جدّه يزمجر متبرمّا من أقدار الله التي أخطأت ذلك الصبي اللعين.

تعلم القراءة في صباه، ولا أحد يعلم متى ولا أين كان ذلك الصبا. كانوا يسألونه أن يسمي لهم اسم قريته التي ولد فيها ولكنه لم يقدر.

سيقول، وقد صار في الجبل، إنه جلس بالقرب من المعارك، حمل الجرحى، دفن الموتى، وعمل في نقل الجثث بين الجيوش. ومن وقت لآخر كانوا يرسلون إليه ليسألوه عمّ تقوله الكواكب وعن احتمالات النصر والهزيمة. وأنهم كانوا يصحبونه معهم إلى الوغى ويذرونه هناك. وكان يعود حافياً لا يفكر بشيء عدا طاحونته. وكلما وجد جثة ربطها إلى جذع شجرة وجلس يعوي تارة ويؤذن تارة أخرى إلى أن يأتي الناس أو ينزل الليل. يروي أحمد ما يحلو له، فما من أحد هناك رأى الشيخ أحمد في صباه.

كبر بطيئاً في الوادي، أو كبر مثل باقي الناس. لاحظ أهل الوادي أنه موهوب بصورة ما، وأنه ربما يكون مختلفاً. قيل أنه من أبوين يهوديين، وأنه يملك في منزله ألواحاً

تخبره عن كل ما سيقع. حُبس كثيراً، قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، لأسباب مختلفة. لم يحبس قط بسبب امرأة. ما كان له أن يقع في فخ كهذا وهو الذي سمع في الطريق منادياً ينادي "إذا ركبتَ امرأة ضجّ أهل النار".

بيد أن مواسم القحط هي التي كانت تجلب عليه سوء الطالع. فهو الذي كان قادراً على الكتابة، وربما كان قادراً على تصريف الرياح. كانت القراءة لعنته، وعندما علموا أنه أيضاً كان يكتب الشعر نبذوه، واضطروه إلى إخفاء قصائده كما يفعل أحمد الطويل الذي لم يعد يكتب سوى قصائد الموت والميلاد، ولا يكتبها سوى على أغلفة المصاحف. كانت أشعاره تمنع المطر وتلوث الحصاد. لاحظ سكان الوادي الأصليون أنه كان يستخدم قافية غريبة من شأنها أن تجلب السباع والجراد. لكنه كان يدافع عن نفسه بصوت عال، ليتغلب على صوت الطاحونة:

"بل هي الكواكب، الكواكب والرياح"

ثم يستدرك قائلاً إنه الله، رب الكواكب والرياح كلها.

بحث طويلاً عن عروس. لكن أحداً لم يكن ليزوّجه فاشترى جملاً. كغريب متعدد المواهب لم يكن من السهل عليه أن يحصل على ثقة الناس وحبّهم. أول الأمر جلس إليه أولئك الصبية والشبان الذين هم، على كل حال، على حافة المجتمع. ثم جلست

إليه الأرامل ولكنهن سرعان ما تخلينَ عنه، ولم يكن هناك الكثير منهنّ مقارنة بالقرية التي جاء منها. كان المكان المحيط بطاحونته يشبه المدرسة، حتى إن بعض الناس كان قد بدأ يسمي تلك الزاوية من الوادي بمدرسة الشيخ أحمد. ولكن تلك الفكرة، أو التسمية، لم تدم طويلاً. كان يحفظ المتون والأشعار وأحياناً يوقف الطاحونة ليحكي للزبائن قصة قرأها بالأمس في المستطرف أو في كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور. وفي يوم، عندما تأكد أنه ما من امرأة بين الزبائن، أوقف الطاحونة وقال للناس إنه سيلقي عليهم لغزاً من الشعر. قال وهو يتقمص ملامح أبي نواس كما يتخيلها:

قصتي أعظم قصة

صارت الظبية لصة

سرقت كأسي مدامي

وامتصاصي منه مصة

خبأته في مكان

للأمير فيه حصّة.

راح الشيخ أحمد ينقل عينيه بين الموجودين مبتسماً ومتسائلاً، وكانت شمس آب باهتة على غير عادتها. وبالقرب من الرجال وقف كهل يحلف بصوت عالٍ إنه لن يذهب إلى الحج بعد أن رأى ما رآه. ظهرت امرأة في منتصف العمر تسوق بقرة شابة،

كانت تضربها بوحشية والبقرة غاضبة لم تفهم السبب. تمهّل الشيخ أحمد حتى اختفت المرأة بين الحقول. انتظر جواباً ولكن أحداً من الحاضرين لم يقدر على اللغز. عدا ابن المؤذن الذي راح يهزّ رأسه ويتمتم. سأله الشيخ بصوت مرتفع عمّا إذا كان قد أدرك المعنى فقال الشاب "في مؤخرتها". ثبت الشيخ عينيه في عيني ابن المؤذن لوهلة، وفهم لأول مرّة ما كان الزبائن يتهامسون به أمام طاحونته عن الأسرة الخطيرة.

كان قد قرأ في كتاب قديم، من الكتب التي يجلبها الآيبون من الحجاز، أن الناس الذين تقهرهم شهواتهم يذهبون إلى أقدس المِهن ليصرفوا عنهم العيون، أو لسيتنجدوا بالله ويتشبثوا بقمصانه. قال صاحب الكتاب: مثل القساوسة والمؤذنين والرواة. لم يفهم معنى كلمة الرواة هُنا، وتمنى لو أن المهن المقدسة تعطى للخصيان.

"ليس في مؤخرتها بالضبط ولكن الجواب صحيح على كل حال" قال الشيخ، فانسحب رجلان من الموجودين وواصلا سيرهما.

بنى الشيخ داراً بالقرب من الطاحونة. بين الدار والبئر حفر بئراً. ثم عثر على بندقية بين قدمي أحد عسكر الإمام، كانت السباع قد مزقته أسفل الوادي. كان عساكر الإمام يأتون إلى الوادي ببنادقهم الطويلة بغية التنزه، وللتأمل في ملك إمامهم. بعضهم كانت تتقطع بهم السبل ويلاقون سباع الوادي.

يقترب السبع من الرجل الذي ضلّ طريقه، يدور حوله سبعين دورة إلى أن يفقد الضحية وعيه ويسقط أرضاً. يترك السبع ضحيته ويركض بعيداً ثم يعود في لمح البصر. سبع وادي الخضر لا يشبه أي سبع في الدنيا، فهو قصير القامة ساقه الرابعة قصيرة ويضمها إلى صدره. لا بد أن يدور حول الضحية، لا بد من السبعين دوره. تلك شعيرة سبع الوادي من غابر الأزمان. يعتقد الكهول إنها صلاة شكر يؤديها السبع قبل عشائه. يقال إنها فرصة أخيرة يعطيها للضحية، وإذا لم يستطع الهرب فقد استحق الموت. كما لو أنه انتخاب طبيعي تجريه السباع على البشر مبقية فقط على الجديرين بحياة محفوفة بالحروب. في أعماقهم يدرك سكان الوادي هذا المعنى. كل الذين عرفهم الشيخ أحمد قالوا إنهم التقوا سبعاً في ليلة ما، وأنهم استطاعوا النجاة قبل عودة السبع من صلاة الشكر. في الحكاية لا بد وأن تكون الليلة مقمرة، أن تحدث المواجهة تحت ضوء القمر الكامل. كل الحكايات التي تروى هي حكاية واحدة، حتى إن الأطفال ورثوها من الآباء ونسبوها إلى أنفسهم. لم يشذ عن هذه الحكاية أحد سوى المؤذن، فهو الوحيد الذي كان يقول إنه لاقى السبع مراراً، وأن كل الليالي لم تكن مقمرة. كانوا يصدقونه. ولو قال إنه التقى السبع مائة مرة لصدقوه، فهم يعرفون أن المؤذن يعشو في الليالي باحثاً عن رزقه.

اشترى الشيخ أحمد مجلدات من حجاج عائدين من الحجاز، ثم جلس ليقرأ التاريخ. أين تعلمتَ القراءة؟ كانوا يسألونه، وكان يرد عليهم "عندما تعلمت الكتابة"، وكانوا يرون جوابه وافياً.

أحدثت طاحونته تحولاً عميقاً في حياة أهل الوادي. ولأول مرة في حياتهم صار خبزهم أكثر ليونة. مع الأيام لانت طباعهم أيضاً، وتزايد عدد النساء اللاتي صرنَ يجلسن إلى الظل ويتحدثن. وهكذا استطاع أن يحصل على امرأة غيّر اسمها في ليلة الدخلة إلى قمر. كانت قمر فتاة بيضاء للغاية، ولها أنف معقوفة تشبه أنوف اليهود. ألهذا اختارها؟ فقد كانت أنفه معقوفة أيضاً. جاءت قمر إلى الطاحونة تحمل على رأسها، في نهار مشمس، وعاءً مليئاً بالحبوب وجلست تنتظر. وبينما كانت الطاحونة تهرس الحبوب خاصتها عرض عليها الشيخ أحمد مقعداً وماء، ثم ألقى عليها بعض الأبيات الشعرية عندما ذهب الناس. ولما تيقن أنها لم تفهم شيئاً سألها عن أهلها وتزوجها بعد جمعتين. لقد حصل على زوجة، وكان ذلك خبراً عظيماً تقافز في الأفواه لأشهر وربما سنوات.

كان الشيخ أحمد يعرف خطورة الشعر، وقد ناله بسببه الكثير. ولأنه قادم من مكان بعيد، وهو هنا مقطوع من شجرة، فقد كان يصبو لامرأة عصية على الإغواء، تضمن

انتقال روحه وطباعه إلى الأحفاد دون أن تكون قد شربت من بئر غير بئره. صحيح أن أهل الودي رفضوا تزويجه بإحدى فتياتهم أول الأمر، لكنه أيضاً كان متردداً في المسألة برمّتها. ففي صباه كانت الأرامل تتلقفه بعد عودته من الحرب وكنّ يفعلن به الأفاعيل. هذه الدنيا غير آمنة، وماذا لو تزوج امرأة هذا النهار وخطفته الحرب في الغد؟ ستصبح امرأته أرملة، وستنتظر الناجين من الحرب لتفعل بهم الأفاعيل. وعندما قرر الزواج كان قد تأكد أنه ما من شاعر هناك، لا في الوادي ولا الوديان المجاورة، وأن أحمد الطويل مات. صلى تلك الليلة مبتهلاً إلى الله بأكثر من ثلاثين اسماً من أسمائه الحُسنى، رجاه أن لا يقبض روحه إلا بعد روح المرأة التي ستصبح زوجته.

يا إلهي كم أحبها، كم قدّس جهلها، وكم شرح لها القصائد بالمقلوب. ورغم إخلاصها الشديد له فإن الأنف المعقوفة لم تشاهد قط على أي من الأبناء أو الأحفاد. أما الشيخ أحمد فرأى أن أنوف أولاده منحينة بعض الشيء في مقدمتها، وكانت تلك الانحناءة الخفيفة تكفيه للقول إن أبناءه خرجوا من صلبه.

وبعد أن انتصف عمره ترك الوادي خلف ظهره، وصعد إلى الجبل في هيئة شيخ مُهاب، وهجر الشعر.

ست كلمات

في الخريف، من العام 1962، فرّ حاكم صنعاء من قصره بعد أن خسر المعركة. سمّى اليمنيون تلك الحرب بالثورة، أما الشيخ أحمد فرآها على نحو مختلف. هي الحرب الكبرى، وهي التي ستضع حداً لأخواتها الصغيرات التي تندلع بين الفينة والأخرى. ما إن وصل النبأ إلى الوادي حتى فكّر الشيخ أحمد، مجرد تفكير، ببناء طاحونة جديدة وبامرأة ثانية. غير أنه لم يفعل ذلك قط، إذ كان قد وعد زوجته بأن لا يفعل.

ففي ليلة من الليالي عاد الشيخ أحمد إلى بيته مبتهجاً والعَرق يسيل من أرنبة أنفه. أيقظ زوجته الغارقة في النوم ليخبرها أنه قد قتل الطاهش. ابتسمت قمر كما لو أنها نشطت من عقال، وطلبت منه أن يأخذها إلى الحج، معتقدة أنها إن لم تستغل تلك النشوة في الحصول على المآرب الكبيرة فإن الشيخ أحمد سيستغلها في أمور أخرى. قال الشيخ وهو يقبل جبينها إنه لن يرجع إليها يوماً وفي يده زوجة ثانية. وسألها ما إذا كان ذلك أفضل بالنسبة إليها من الحج. فأومأت برأسها ثم نامت كما لم تفعل من قبل. وعندما استيقظت من نومها كانت قد رضيت عن كل ما في الأرض، عن الشيخ أحمد، عن الإسلام، عن الأطفال الذين سيجمعون عظام الطاهش، وعن شجرة

التين القريبة من دارها. وفي ما جاء من أيام كانت تقول لجاراتها، ولأمها، إن الحج ليس أعظم شيء الدنيا.

"وما هو أعظم شيء في الدنيا؟" كنّ يسألنها، فتتلعثم وتقول الوعد.

الثورة تحارب نفسها وعدوها، السماوات في مكانها، ورجل يمضي تحت الشمس بين حقول الذرة، لا يلقي السلام ولا يرد على أحد، ويغمغم: الحرب هي الحرب، والجمعة هي الجمعة. وفي المسجد المبنِي على ضريح الشيخ الزعفراني دعا الخطيب للثوار الذين دحروا الظلم وأخرجوا العِبَاد من عبادة العِباد إلى عبادة رب العباد. ثم تلعثم وأعاد الفقرة من أولها وأبدل الثوار بالمؤمنين. وعندما لاحظ أنه كان يتحدث في أمور جديدة بالنسبة له توقف عن الكلام وابتلع ريقه، وغير مجرّى الحديث. تحدّث عن التقوى، وسأل الله بأن يعوّض أهل اليمن عن المآسي بالأمن وعن الفقر بالأمطار. أراد أن يقول اللهم ولي علينا خيارنا، غير أن تلك الدعوة بقيت تُراوح بين حلقه وشفتيه ولم تخرج. فخيارنا كانوا قد دحروا شرارنا وصاروا ولاة. بَيد أنّ دوافعه الغامضة قهرته في آخر الأمر ودفعته إلى الدعوة إلى خيارنا ضد شرارنا.

كان الشيخ أحمد هناك في المقدمة، غير أنه انسحب بين الخطبتين إلى مؤخرة المسجد وشرد قليلاً وعيناه على شقّ ناشف في باطن قدمه. أغمض عينيه وأسند

ظهره إلى الحائط فرأى الشيخ الزعفراني يركل قدمه ويأمره: "الجبل الجبل". فتح الشيخ أحمد عينيه، كان الإمام ينهي الجزء الأخير من خطبته الثانية بتلك الكلمات التي تنتهي إليها كل خطبة: "وإن شمس الشريعة الإسلامية منذ أشرقت تضيء لنا سواء السبيل، فرحم الله عبداً اهتدى بهديها وهدى الناس إلى رشدها". اصطفّ الناس للصلاة وذكّر الإمام المُصلّين بما يعرفه عن الله والشيطان:

"لا تدعوا فرجة للشيطان، حاذوا بين المناكب والأقدام، إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج".

في الركعة الأولى قرأ الإمام من سورة الكهف إلى أن وصل إلى قول الله"قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً". عادة ما يقرأ الإمام في صلاة الجمعة من سورة الكهف، ويعتقد أهل الوادي جيلاً وراء جيل بأن الكهف موجود في مكان ما أعلى الجبل. غير أن أحداً لم يفكّر بزيارته، والسورة تكفيهم. ألقت كلمات الآية بالشيخ أحمد بعيداً، إلى مكان ما في منحدرات الشمال ودفعته نصف قرن إلى ماضيه.

قفز الشيخ أحمد إلى ذلك اليوم حين رمت قبيلته بفتيانها إلى الحرب من جديد فعبثت النجوم بالأقدار كعادتها. في طريق عودته من حرب وقعت بين الجبال كان

أحمد، الصبي آنذاك، قد مل نجاته المتكررة وصارت سلامته تصيبه بالخزي. الشجعان لا يعودون من المعارك، والجبناء يُجرحون في سيقانهم، أما الفارون فيعيشون طويلاً وتتلقفهم النساء. في المرة تلك أقسم جدّه، وهو يقيّمه في حضور والده وأعمامه الثلاثة، أن يلقي بأحشائه للكلاب إن لم يعد برأس، أيّ رأس "ولو رأس كبش". أو إن لم يُقتل. فهو يريد أن يرى رجلاً، لا رعديداً يقضي عمره متسللاً بين اصطبلات الأرامل. إذ أكثر ما كان يخجله في شأن حفيده أحمد أنه الوحيد بين الأبناء والأحفاد من يحمل أنفه المعقوفة، ولا بد لتلك الأنف من شرف، ولا بد للشرف من مقام، وفي المقام سر. دافع الصبي أحمد عن نفسه قائلاً إن الذين شاهدوا جسارته في الحرب الأخيرة، وبمقدورهم أن يقولوا الحقيقة كاملة، هلكوا جميعاً. نهره جدّه "ولماذا لم تهلك أنت مثلهم إن كنت رجلاً؟ ما الذي يجعل مصائر الرجال الشجعان مختلفة؟ لماذا تعود كل مرة بلا مشقة؟ أتريد أن تعيش لوحدك بعد أن يفنى كل الناس؟". كان يلقي عليه الأسئلة، يتمهل بين السؤال والآخر ويدور حوله كوحش. وكانت في يده عصا خضراء لم يشذب طرفها، راح يلكز صدر أحمد وظهره بها، قائلاً: "أين تختفي حين تعود؟ تذهب إلى الأرامل في قرية بني راجح؟". ثم قبض على أنفه وجعل يمطها ويحركها يمنة ويسرة كما لو أنها كانت توجع قلبه وتؤرقه. مطّ تلك الأنف حتى كاد يمزقها ووضع شفتيه على أذن حفيده وهمس:

"هل شممت رائحة أرملة؟ هاه، أخبرني. هل نحن في آخر الزمان، هاه؟ هل وصلنا إلى آخر الزمان؟"

ثم دفعه بعيداً، وقال لأبنائه الأربعة الذين وقفوا يرتجفون:

"آخر الزمان سيموت أغلب الرجال في المعارك ومن بقي منهم سيحصل على أربعين امرأة، وستهب النساء على الظل يحسبنه رجلاً".

قهقه، لعن آخر الزمان ولعن الصبي الذي يريد أن يرث العالم. عاد للدوران حول الصبي مثل نسر، دنا منه هامساً بصوت يسمعه الأعمام:

"أنفك شرفك، انظر إلى أنفي، هاه انظر. إياك أن تلحق العار بهذه الأنف. هذه الأنف لا يمنحها الله لمن هبّ ودب".

أغمض الجد عينيه ودفع الهواء بعمق إلى رئتيه ثم أطلقه إلى السماء دفعة واحدة، وتمنى لو أن أنف حفيده اختفت إلى الأبد. فلو عاشت تلك الأنف طويلاً، يؤمن في أعماقه، فإنها ستقصّر أجله أو ستصيبه بالنحس. ولأنه لم يرَ قط مثل أنفه فقد اعتقد أن الخالق ليس لديه الكثير منها، وأنه لذلك يمنحها بعناية ويختار لها أعظم الوجوه. راح ينقل نظراته بين أبنائه الأربعة، الواحد تلو الآخر، ثم كشف عن ساقيه حتى فخذيه وبان سرواله الأبيض، وبانت جروح قديمة في الفخذين. قهقه عالياً. كانت ضحكة

قاسية وجافة، ثم صمت فجأة وجعل يدور أمامهم ليريهم فخذيه وساقيه من كل الجوانب. رأى الأبناء الحرب على فخذي أبيهم، وكانوا واثقين كل الثقة من أن تلك الندوب التي رآوها كافية للقول إن والدهم كان محارباً عظيماً وأنه لم يكن جباناً، ولولا النجوم والكواكب لما خسر حرباً قط.

أما أحمد فقد رأى ندوباً ميتة في ساقي رجل مهزوم.

فجر اليوم التالي، وكان يوم جمعة، حمل أحمد بندقية جده وهبط الجبل باتجاه السهل علّه يلتقي حرباً فيعود منها برأس، أو بجراح في الكتف. في واحدة من حروب الصبي أحمد، وكانت حرباً صغيرة، قال له رجل إن جراح الكتفين هي جراح الشجعان وأن اسمها جراح الكمائن. بخلاف جراح الأقدام والسيقان، أخبره المحارب، فتلك جراح الفارّين وناكحي الأرامل. وسأل أحمدَ إن كان قد جُرح من قبل فنظر الصبي إلى ساقيه، ثم ألقى بعينيه إلى حيث يوجد الأعداء وجلس ينتظر.

استمر في نزوله، وكان يغني ببعض الأبيات الشعرية عن الحصاد. بين قريتين على جانبي طريق السيل سمع أذان الجمعة فتوقف للحظات ثم واصل سيره. شرب من نبع صغير، وألقى التحية على راعيين أو ثلاثة وسألهم ما إذا كانت هناك حرب قريبة فقالوا إن واحدة توقفت للتو، وربما انتهت. وتأسفوا لسوء حظه. ولما أصبح

بمقدورهم رؤية ظهره وهو يتحسس طريقه بين أحجار السيل الملساء ناداه أحدهم قائلاً:

"لا تندم عليها، لم تكن معركة تليق بفتى في عمرك".

توقف أحمد والتفت إلى الخلف، فقيل له:

"انتهت دون جرحى، كانوا حفنة من الكهول على الطرفين".

توضأ أكثر من مرّة ولكنه لم يصلّ سوى مرة واحدة، ولم يعلم كم ركعة صلى ولا أي فرض. في الأسفل، وقد استوى الطريق ونزلت الشمس إلى العُش، ألقى بظهره إلى جدار ونام. استيقظ فزعاً، كان رجل قد جثا أمامه وأخذ ينقر جبينه بسبابته. كان الليل حول الرجلين، كان قمر الجبال في الأعلى والقبائل شاخصة تجاهه. كان قمراً مكتملاً فأدرك أحمد، حتى قبل أن يفتح عينيه، أن عليه أن ينتظر أسبوعين كاملين حتى يجد حرباً. فالقبائل توقف معاركها عند اكتمال القمر، وتكمنُ في انتظار أن يهبط شيئاً فشيئاً في معراجه ويتلاشى. لا تخوض القبائل حرباً في وجود القمر التام، فالقمر وجه الله وهي تحترم وجه الله. تحارب منذ القدم، وستواصل عادتها تلك في قابل الأيام، لكنها تتحاشى وجه الله. ولأنها حرب لا تتوخى النصر ولا تخجل من الهزيمة فما من حاجة لذلك الوجه. وإذا تعذرت رؤية القمر بسبب الغمام ترسل القبيلة العيون

لمطالعته من القرى السفلى، أو يجتمع الرجال في مكان عام ويصلون كي تذهب الغمامة. وإذا عجزت الصلاة عن رفع الغمامة ينادي منادي القبائل "أيها الناس اقلبوا نساءكم" فيقلبون نساءهم إلى أن تنجلي الغمامة.

الغمامة تخيف القبائل وتعد من سواء الطالع. فهم يخشون إن أطالت بقاءها فقد تجف جراحهم وربما تبرأ. يفضل اليمنيون الذهاب إلى الحرب الجديدة بالجراح الحيّة والمفتوحة، بجراح الحرب الماضية. يخشون إن تركوا جراحهم تجف أن ينسوا الحرب أو ينسوا أسبابها. أما صغار اليمنيين فيعتقدون أن الجراح المفتوحة تجلب الحظ السعيد. وأن بلادهم السعيدة ستبقى دائماً سعيدة وإلى الأبد ما دامت جراح الرجال مفتوحة وتنز. ذلك ما يجعلهم يقلبون نساءهم كآخر الحلول، وعادة ما يفلح الأمر.

صرخ أحمد بأعلى صوته ولكن الرجل الجاثي أمامه باقي ساكناً. عاد أحمد وصرخ ثانية وثالثة، تحسس بندقية جدّه التي وضعها تحت رأسه فلم يجدها.

سأله الرجل بصوت عامر بالسكينة:

"مللتْ من كل هذا يا أحمد؟"

قال أحمد، دون أن يكون قد فهم السؤال، وهو يبتلع ريقه:

نعم.

اعتدل الرجل واقفا، حملق في عيني الشاب على ضوء قمر الجبال، وقال بهدوء:

اتبعني ولا تسألني، إلى أن نصل.

فرغ الإمام من صلاة الجمعة، وبقي الشيخ أحمد في مكانه ريثما يتمكن الآخرون من الخروج، وكانت تلك الأيام تجري في رأسه وتهزّ لحيته. قام، وخلفه ماضيه، وذهب إلى المكان الذي يصلي فيه الإمام. أخذ مصحفاً من حفرة صغيرة على الحائط وفتح الكتاب على سورة الكهف. راح يبحث عن الآية التي كانت آخر ما سمعه في الصلاة. أراد أن يتأكد ما إذا كانت الآية تقول "إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني "، أم"إن سألتك عن شيء فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا".

تأكّد الشيخ أحمد. أعاد المصحف إلى مكانه وغادر المسجد.

في طريقه تذكر كيف حاد الرجل الصالح يسارا، بعد ليال من الصحبة، وتلاشى في الأشجار. كانت رحلة شحيحة بالكلمات استغرقت ستة أيام، لم يجرؤ خلالها أحمد على أن يطرح على الرجل سؤالاً واحداً حتى الليلة السادسة. قال له الرجل الصالح في الليلة الأولى سأدلك على واد بين جبلين. و في الليلة الثانية قال ستعرف اسمي عندما ينتصف العمر. وفي الليلة الثالثة قال إذا كان ولا بد من الحرب فلتنزل إليها من جبل. وفي الليلة الرابعة قال له هذه أرض الحروب، لا تذهب إليها كلها ولكن اختر منها ما

يسعد بنيك. وفي الليلة الخامسة وقفا متقابلين وصلى كل منهما باتجاه الآخر، قال الرجل الصالح: إذا لم تجد الله فسوف يجدك هو، ولكن ذلك سيكون ثقيلاً عليك. وفي الليلة السادسة سأله أحمد عن اسمه فلم يجب. أعاد أحمد سؤاله، وكان ذلك خطأ كبيراً.

منذ وصل أحمد إلى وادي الخضِر، في صباح يوم جمعة قبل عشرات السنين، والحروب تأتي وتروح.

هاهو الآن، وهو يسمع أخبار الثورة من أفواه الرجال، تملؤه السعادة. لا بد وأن الحرب الكبرى هذه ستضع حداً لكل تلك الحروب الصغيرة، وهذا ما كان يعنيه من شأن الحرب الكبرى، أي حرب كبرى. لم يكن معنياً بالمنتصر ولا المهزوم، ولا بالمسائل التي تفجّر الحروب. رأى الثورة في شكلها الآخر مجرد حرب شاملة انتصر فيها أناس يقولون كلاماً على أناس يقولون كلاماً آخر، أو على أناس يرددون القول نفسه بكلمات أخرى. أدرك ببصيرته وكتبه أنه لا قيمة للنصر إذا لم يتمكن الرابح من إخضاع سائر الناس. وأنه لهذا يتشابه كل حكم جديد مع سلفه بعد وقت يطول أو يقصر. كان سعيداً بسبب اندحار الحاكم الملكي لا لأنه قهر عموم الناس كما يردد المسافرون في مقهى الحاج زُط، بل لأنه لم يقهرهم بما يكفي. لو أنه قهرهم بما يكفي لمنعهم من

خوض حروب ضد أنفسهم، ولحرسوه بأنفسهم. استحق الملكيون هزيمة نكراء لأنهم وهم حكام لم يمنعوا جدّه من إرسال بنيه ألف مرّة إلى الحرب. كان، حتى وهو صبي في القرية، يظن أن عدد الأرامل مؤشر على سوء الحاكم. وأن الأرامل إذا بلغن عدداً معيناً فإن الحاكم سيزول، أو ينبغي أن يزول. كانت تلك هي معضلة الملكية لدى الشيخ أحمد الذي قرأ الكتب وعرف ما يقوله الحاكم عن نفسه ولم يكن يهمه كثيراً ما يكتب بل ما يجري على الأرض. فإما أن يُخضع الناس جميعهم لسلام شامل أو يتركهم ينهشون في أجسادهم. النوع الأول هو الحاكم الجيد، النوع الثاني هو الحاكم السيء. لم تعد غربة أحمد تتسع للكثير من التنظير حول الحاكم. وقد وجد يوماً في كتاب أن الحاكم الذي يقيم الحدود ويحمي الثغور لا بأس به وإن ظلم الناس ألف مرّة وتقافز على نسائهم مثل القرد. كان يحفظ اسم المحدّث الذي ردد هذا الكلام قبل ألف عام. بالنسبة لأحمد فلتأت حربٌ واحدة كبيرة ولتضع حداً لكل ما هو صغير، للرجال الصغار، للحروب الصغيرة، وحتى للبلدان صغيرة الشأن. لا يرى من مشروعية للحاكم غير ذلك. إن ترك الحاكم الحروب تأكل الأخضر واليابس فقد خان رعاياه. أما إن وضع حدّاً لكل ذلك فقد أدرك مُراد الله وقبض عليه.

كان قصر الملك، حاكم صنعاء، غير بعيد عن قريته في جبال الشمال، يتذكر. ولم يكن ليتذكر بسهولة. تعيش قريته في لاوعيه، وكأنها محيت من صدره. كانت قبيلته تنزل

إلى سهل تهامة، وإلى السهول الأخرى، وتباغت الفلاحين لتحصل على الرزق. وأحياناً تضرب في تلك الأرض السهلة حتى تبلغ البحر ثم تعود. لم يكن من شيء يكسر قبيلته سوى البحر. ترى ما الذي يفعله جدّه الآن، ألا يزال على قيد الحياة؟ كان أكيداً أن كل نظام حكم سيترهل بعد زمن ويتفسّخ، مفسحاً الطريق للحروب المرهقة، الحروب الصغيرة. الحرب الكبرى لا ترهقه لأنها تضرب كل الناس وتكون عامرة بالوعود الكبيرة. كان يردد أن الموت مع الجماعة رحمة. الحروب الصغيرة هي ما يفزعه، فهي التي اقتلعته من جذوره وهي التي تؤلمه ويخشى أن تواصل إيلام بنيه. لكن، يعزّي نفسه، عادة ما تتراكم الحروب الصغيرة مع الأيام حتى تخلق الحرب الكبرى. عثر على ما يساند فكرته تلك في التاريخ، وقد رأى كيف تراكمت حروب الدولة الأموية الصغيرة حتى صارت إلى حرب كبرى أهلكتها في وادي الزاب. هذه الفكرة جعلته يعتقد أن الحرب هي أقدم السكان في أرضه، هي المالك الحقيقي للبلاد وأن فترات السلام ليست سوى استراحة للأخت الكبرى.

هذا ما فهمه في الوادي.

البئر لنا

صارت له ذرية في الوادي: ولدان، بنت، وزوجة. وسيكون له أحفاد، وسيموت هو يوماً ما. لن يخاف على ذريته من شيء سوى من عادة اليمنيين. وعادة اليمنيين، كما يسميها، هي الحروب الصغيرة.

ثمّة حرب في صنعاء، الثورة تقاتل الملكية، أو الملكية تقاتل الثورة، أو شيءٌ ما ضارٍ يجري بين الرجال هناك، وفي كل مرة يخترعون له اسماً ويسبغون عليه ما يرغبون من الصفات. ينتظر الشيخ أحمد أن تفضي الحرب الكبرى إلى السلام الأكبر لكي يستريح. ولكن تلك الحرب التي فرح بها، وأولم لها بخمسة كباش دفعة واحدة، لا تطاوع أحلامه. يريد أن ينسى الحرب، كل حرب وأي حرب، أن يخرجها من دمه ويلقي بها في العراء أو بين جبلين. يودّ لو أنه استطاع أن يخلطها بروث بعير ويطعمها للسباع، أن يعجنها بالطّيْب وورق الكافور وأن يبيعها لتجار نصارى عند البحر. سيحلف لهم، بكل ما يحفظه من أسماء الله، أنها عجينة طاهرة تشفي من داء الغربة. لو أن دود الأرض استمعت له، لو أن جِن الصلوات جلسوا إليه، لو أن الملائكة الجرحى أنصتوا، لو .. لفهم كل أولئك لماذا يريد للحرب أن تنتهي. الحقيقة أن الشيخ أحمد نفسه لا يعرف لماذا يفر من الحرب إلى الحرب، ولا لماذا تشغل باله كل الوقت. إن ما يجري

في أعماق الرجل أعقد من قدرته على فهمه. ولا حتى في تلك الليالي عندما استدعى الأبّالين ليقرأوا ليعالجوه بالأشعار والقرآن. لم يفلح الأبّالون الذين يعيشون بين الجبال في علاجه، وهم خير من يفهم القرآن لأنهم ينظرون إلى الإبل كيف خلقت. لو أن الحرب رست على جبل، فكّر الشيخ أحمد، سيتزوج من جديد وسيرى ما إذا كان بعض أبنائه سيحملون أنفه المعقوفة. سيراقب الأنوف وأسنان الفكين، وسيرى. ولكن عليه أن يأخذ قمر إلى الحج إذن. فعندما سألتْه في الأسبوع الثاني من زواجهما عن أجمل ما فيه قال الإخلاص للنساء. وشعرتْ بغصة في صدرها، وتخيلت عشرات النساء يقفن بباب الشيخ أحمد يطلبن منه الوفاء بالوعد فيلبي الرجل طلبهن بشهامة منقطعة النظير. وربما صحبهن إلى الحج على ظهور الجمال، تمسك المرأة بقتب الجمل، ويمسك الشيخ أحمد بخصرها من الخلف، صعوداً ونزولاً، وهما يناديان لبيك اللهم لبيك حتى يبلغا مزدلفة. اقشعّر جسدها بالكامل وهي ترى هذا المشهد من الأعلى، وكادت أن تتقيء ما بداخلها لولا أنها كانت صائمة، وكان يوم اثنين أو خميس. لم تجرؤ قط على أن تسأله عن النساء في حياته، ولا كم يبلغ الطريق حتى مزدلفة.

يريد الشيخ أحمد أن يرى نفسه أو وجه جدّه، أن ينظر إلى طفولته مرة أخرى، أن يمطّ أنفاً معقوفة من أرنبتها ويصرخ في صاحبها "هل شممت رائحة أرملة، ها، أخبرني".

يفكّر بين الآن والآخر بامرأة ثانية، ويحدث نفسه بأرملة، فقد حمل تلك الرائحة من جبال الشمال البعيدة. رائحة أرملة واحدة تهزم جيشاً، نهره جدّه يوماً ما وهو يراه يخرج من كل الحروب بلا جراح. يتردد في الإقبال على تلك الخطوة لأمرين: ليس بمقدوره تخيّل ردة فعل أسرة قمر. ثم إنه، وهذا أهم ما في الأمر، لا يعرف ما إذا كان السلام الذي جاءت به الثورة سيعيش طويلاً. إذا وضعت الحرب أوزارها فسيتزوج بفتاة بكر، سيدخل بها في ليلة مقمرة وستسمع قبيلته المحاربة، قبيلته البعيدة، صرختها. وسيزمجر جدّه الغليظ "اطعنها بذلك الشيء، أنت لم تخلق سوى لهذا". ثم ينقبض قلبه، وينهر نفسه "خلقت لأشياء أخرى أكبر وأهم". في رأس الشيخ أحمد ما تنوء به الجبال. وعلى ظهور الجبال أمور لا يطيقها سوى كاهلي الشيخ أحمد. تقفز فكرة إلى رأسه: إذا تفسخ السلام وعادت الحروب الصغيرة لتتفجر بين القبائل، إذا اختلط دخان القرى من جديد وكان لا بد من عروس فلتكن أرملة. للحروب الأرامل وللسلام الأبكار، حفظ من طفولته. ليت الدنيا كلها أرملة، ليت الجبل والبحر والصخور والنبع أرامل. أين تختبئ تلك الرائحة في دمه وفي روحه؟ في مكان ما، وهي تنام وتصحو. يصبو الشيخ أحمد لأمر يسير: أن يعرف متى ستصحو تلك الرائحة ليتحضّر لها. ففي مرة، وقد غلت رائحة الأرامل تحت لسانه، أخرج شيئه الغليظ وراح ينكح الجبل ويئن كامرأة.

جاءت الغمامات الرصاصية مراراً وأمطرت، وخفّت قدما الغمامة البيضاء الفارغة. مضت الأيام وأنجبت النساء الأطفال، وسمع الشيخ أحمد أن بعض الناس في أعالي الوديان لم يعودوا يقصّون على أطفالهم حكايات عن الشجاعة، كما كانوا يفعلون. ولى زمن الرماية.

"علموا أولادكم صلاة الاستسقاء وصعود الشجر، علموا أولادكم صعود الشجر، علموهم صعود الشجر" قال خطيب الجمعة في واحدة من الأيام وهو يرفع سبابته وينظر إلى سقف المسجد. وتهللت أسارير المصلّين الفرحين بالثورة وبالسلام الذي جاءت به، وعادوا إلى نسائهم وقد تعاهدوا على أن يذرأوا في فروجهن وأرحامهن شعوباً وقبائل.

وفي صباح باكر، قبل النور، اصطحب الشيخ أحمد بعض الرجال وذهب إلى المدينة المحاطة بالأسوار وانتظر حتى فتحت أبوابها فاشترى طاحونة، وحمل أجزاءها على ظهور الحمير. أثناء عودتهم سلكوا طريقاً آخر يناسب الحمير، وهناك اكتشفوا شيئاً مهولاً. فقد بدأ الحاكم بشق طريق لو مضى في خطّه فسيقسم الوادي إلى شطرين. في البدء يقوم العمال بشق الطريق ثم بتسويته ودكّه بالآلات والعربات، ثم يصبون عليه الأسفلت. لم يشاهد مثل هذا الطريق من قبل، وبدا له مريباً. وأكثر ما أفزعه كانت رائحة الطريق الجديد، تشبه رائحة الجن. صار يخرج من بيته ويذهب إلى هناك،

حيث العمال، ويجلس قريباً منهم. كان الطريق يكبر ببطء، وكان الشيخ أحمد قبل أن يغادر يضع علامات على الأرض ليرى في اليوم التالي ما إذا كان الطريق يكبُر، وبأي سرعة. كان العُمّال يتحدثون عن كل شيء، قالوا إن الطائرات سيكون بمقدورها الهبوط على هذا الطريق. قال عامل إن الطائرة يمكنها أن تمشي عليه حتى تبلغ عدن ولن تكون مضطرة للطيران. سمع الشيخ كلاما فهم منه الشيء القليل وتخيل الباقي على طريقته، تخيّل الطائرات وكان أمراً مروّعاً. العامل الذي كان اسمه سعد، وكان أكثرهم ثرثرة، قال لزملائه وقد جلس للراحة إن هذا الطريق بني لأمرين اثنين: حتى تتمكن الدولة من الوصول إلى المخرّبين، ولكي يتمكن الجيش من الذهاب إلى الحروب دون عوائق. هنا رفع الشيخ صوته، وكان يجلس على بعد أمتار عديدة، وسأل: ألم تنته الحروب؟ فقال سعد إن الحروب الحقيقية لم تأت بعد، وأن الناس تبني الدول لكي تخوض الحروب لا لتوقفها.

"ولكن الثورة جاءت لتضع حداً للحروب والثارات. ألن نستريح؟" قال الشيخ أحمد.

فقال سعد الثرثار وهو يلقي بحجر على الأسفلت الطري:

"اليمن لا يعرف الراحة".

ثم سأله عن حمولة الحمير فقال الشيخ أحمد إنها طاحونة. نصحه الرجل بالاهتمام بطاحونته وبأهل الوادي، وقال وهو يحك ركبته اليسرى "المراحل طوال يا أهل الوادي. المراحل طواااال".

في تلك الليلة عاد الشيخ إلى بيته وقد حلت الغصة في كل جسده. صباح اليوم التالي ذهب إلى السوق، وكان يوم أحد، وتحدث مع الناس حول الطريق الذي سيشق الوادي إلى نصفين وقد يجلب معه الحروب التي لن تبقي ولن تذر. قال له أحدهم، وكان تاجر ماشية في السابق ويعرف البحر جيداً، إن هناك حرباً بالفعل وما عليه سوى أن يصعد إلى الجبل وينظر باتجاه البحر إذا أراد أن يراها. قال الرجل إن الحروب تبدو عند رؤيتها من أعالي الجبال أكثر روعة مما يظنه أهالي الوديان. أثار كلام الشيخ عن الطريق بعض القلق، ثم سرعان ما انصرف الناس إلى شؤون السوق. كان كثيرون منهم قد سمعوا عن الطريق الذي تشقّه الدولة وشعروا بالامتنان والرضا، خصوصاً وقد قيل لهم في ديوان شيخ الوادي أن الدولة ستشتري الأراضي التي تقع في الطريق وستدفع أموالاً طائلة لأصحابها. وحده الشيخ أحمد أخذ الحكاية إلى مكان آخر.

في المساء قالت له زوجته قمر، وهي تحاول أن تهدئ من روعه، إن والدها يملك داراً في الجبل تسكن فيه خالتها بصحبة طفلتها، إن كان يفكّر بالجبل. تلك الليلة قرر الشيخ أن يترك الوادي، وأن يعهد بالطاحونة إلى الأبّالين.

فكّر بالبئر كثيراً، ثم اتخذ قراره بشأنها "سأبيعها للدولة".

ولكنّي لم أحفر الأرض من أجل الدولة، فكّر الشيخ أحمد. عاد عن قراره. أطرق ملياً، قمر تراقبه. ألقت عليه سؤالاً فقال "البئر".

قالت، وهي تحاول أن تنقذ زوجها مما يجري في رأسه:

"لماذا تفكر بالبئر؟ البئر لنا".

غمغم أحمد:

"البئر لنا".

إذا غنّى المُغنّي

أسفل الوادي، على بعد بضعة أميال من المدينة، يجلس الحاج زُط وسط مقهاه منذ زمن. يروي القصص، كل قصة تأخذ نهايتين مُختلفتين: واحدة لأهل الوادي، والأخرى للمسافرين. جاء إلى هناك من اللامكان، وكان اسمه مُحسن.

"سألت رجلاً عن الطريق فقال امض خلفي وسأدلك على الوادي"

كان يروي.

ما إن وضع قدمه على تراب الوادي حتى أخذه النوم. أفاق تحت أشجار البابايا، يسميها أهل الوادي شجرة العَنْب، وفي السوق يبيعونها باسم عَنْب الفلفل. لا يمكن للغرباء أن يجتازوها دون أن يغشاهم النّعاس. عندما استفاق من نومه رأى مسافرين قادمين وذاهبين في الطريق الموازي للحقول. قام إلى الطريق وانتظر، ثم سأل عن اسم الوادي فقيل له "وادي الخَضِر عليه السلام". أحدهم قال له، وكان يدفع عِجْلين أمامه "إذا سلكت هذا الطريق وتركت الشمس على يسارك ستجد السوق بعد دُبِيزَى". لا بد وأن دبيزى تشير إلى زمن طويل، أو قصير. فلم يسبق لمحسن أن سمع تلك الكلمة من قبل، ولن يسمعها بعد ذلك.

بقي في مكانه هناك، يحاول احتواء دهشته وتذكّر ملامح الرجل الذي ساقه إلى الوادي تحت جنح الظلام. نظر إلى أعلى الوادي فرأى أرضاً خضراء بين جبلين. كانت الشمس لا تزال كامنة في مكان ما، وتساءل ببلاهة ما إذا كانت ستجلس هُناك حتى الغروب. تسلل مُحسن بين حقول البابايا وهز شجرة فسقطت فاكهتان. لمحته امرأة كانت ترعى معزاتها السّت في حقل مجاور فرفعت صوتها بأغنية بلدية عن جنّي قصير القامة. لم يسبق لمحسن أن رأى مثل هذه الفاكهة في المكان الذي جاء منه، وبدت له الأغنية مألوفة بعض الشيء. تمشّى بين الأشجار حتى صار بمقدوره الحديث إلى المرأة. كانت في مثل عُمره، وهو لا يعرف عن الأعمار سوى مقياس الجدّة التي قالت له، حين لاحظت الزغب على خديه لأول مرّة: "إذا خرج العَظْم من زبّك فتلك علامة بلوغك". وكانت تنصحه بأن يتمهّل في كل شيء. ومما قالته "عند العشرين سيسيل العظم دون سبب. بعد الثلاثين ستكون هناك أسباب كثيرة لجريانه، وعند الأربعين لن يخرج إلا بشق النفس، وستكون تلك علامة رشدك". وكانت توصيه بأن يولي الأمر اهتماماً كبيراً، فالله لا يغفر الذنوب بعد ذلك إلا لمن قتل يهودياً. وكانت تداعبه وتتوسل إليه، إن أرادت منه منفعة، قائلة "أني فدا زبّك يا ولدي". يحب الله قرية محسن، القرية التي جاء منها. ذلك أن الرجال يذنبون، والحديث يقول لولا أنكم تذنبون لذهب الله بكم وجاء بآخرين يذنبون حتى يغفر لهم. ولكن الله يضع شرطاً

لذلك الغفران: أن تقتل يهودياً بعد كل ذنب. جميعهم يكفرون عن خطاياهم بقتل اليهود بلا رحمة. حتى إن رجلاً، ربما كان جدّ محسن أو خاله، صعد في ليلة من ليالي الصيف إلى سطح منزله وكان يصيح "الله أكبر فتحت خيبر، من أراد أن يقتل يهودياً فليأت". وكانت امرأته في غرفتها تضع يدها على أذنيها وتلعن المأبون أشد اللعنات. وفي النهار أخذه أشقاؤها إلى مكان خلف أكمة وركبوه ثم ألقوا به من شاهق. كانت قصة رهيبة.

وكانت نساء تلك القرية عندما يلتقين يسألن بعضهن فتقول الواحدة أربعة يهود، وتقول الأخرى يهوديان. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، فإن النيكة لا تعَادل روح اليهودي إلا إذا وقعت ليلة الجمعة، أو هوى النجم.

سأل مُحسن المرأة عن الشجرة، قالت إن الأجداد أوصوا بزراعتها عند مداخل الوادي. سألها عن السبب فصاحت وهي تنظر بعيداً "هش هش" ولوّحت بكفيها وذراعيها فخرجت المعزات الست من الحقل إلى الطريق. وهي تزيح الشوك عن طريقها بالعصا قالت للرجل "اسأل الأبّال" ثم أشارت بعصاها إلى رجل يمشي وخلفه بعيره. قفز الرجل على جدار الشوك، أو الزّرْبة بلغة أهل الوادي. ألقى الأبّال تحيته على

الغريب وتحدثا عن الفاكهة ثم الوادي ثم السوق. قال الأبّال إن الشجرة تحرس الوادي وسأله "كم لبثتَ؟"؟ فقال الغريب: غفوت ليلة أو ليلتين.

"تبعتُ رجلاً في الظلام فجاء بي إلى هُنا" قال مُحسن محاولاً استعادة أنفاسه ووجوده.

"حدث معي الشيء نفسه" قال الأبّال.

وجد مُحسن جواب الأبّال مفزعاً ومحيّراً. غير أن الأبّال غيّر مجرى الحديث إلى فاكهة العَنْب، قال إنها تحمي من الوباء والغزو، وتليّن اللحم. كان محسن يبحث عن الكلمات المناسبة ولم يجد أيّاً منها.

قال الأبّال، مضيفاً إلى فضائل تلك الشجرة:

"والأهم من ذلك أنها تقي الرجل، إذا أكلها في وقتها، من أير الشتاء"

نكش الأبّال بعصاه التربة، وهما واقفان والجمل يأكل من شجر الطريق. سأل الغريب عمّا قائلاً "قاخرج العُظّامي"، فهز الغريب رأسه. قال الأبّال:

"إذن فقد فهمت كلامي".

والعُظامي عند أهل الوادي هو ماء الرجل. وحين يخرج من الصبي لأول مرّة يرسلونه لينام بين الجبال ثم يذهبون للبحث عنه.

لسنا ندري إن كان مُحسن قد فهم كلام الأبّال، ومن أين لرجل نزل للتو من الجبل أن يعرف شيئاً عن عنْب الفلفل أو أير الشتاء. سارا معاً قاصدين دغْسة الخَضِر. قال الأبّال إنه ما من أحد إلا وجاء إلى الوادي جرياً وراء الهاتف، كابراً عن كابر.

"ماذا تقصد بالهاتف؟"

أجاب الأبّال:

الرجل الصالح الذي انتشلك من التيه.

"وكيف عرفت أنه انتشلني من التيه؟"

قال الأبّال:

لا يلاقيه سوى التائهين.

بالقرب من السوق سأله مُحسن عن عمره فقال الأبّال إنه لا يتذكر العام ووعده بأن يعرّفه على أحمد الطويل الذي يحفظ الأعمار.

"وكيف يحفظ الأعمار؟" سأله محسن.

فقال الأبال إنه يكتب لكل شخص قصيدة يختمها بكلمة تشير إلى الموت أو الميلاد.

وذكر له مثالاً شهيراً: اليوم الذي ماتت فيه أم الشيخ طه، شيخ الوادي. يحفظ كل

الناس القصيدة الحزينة التي تنتهي بعبارة: ماتت بذي الحجّة بواقي ثمان، تاريخها دادم يُغاري. إذا حددت موقع كل حرف من الأبجدية، ثم جمعت الأرقام كلها فسوف تحصل على سنة الميلاد أو الوفاة. ولأن أهل الوادي لا يجيدون القراءة فهم ينسون أعمارهم دائما، ولا يتذكرون موتاهم.

سرعان ما وجد مُحسن عملاً.

عمل حطّاباً ثم جمّالاً. صاحب المسافرين من أعلى الوادي وودعهم في الأسفل. وعندما شارف عمره على الثلاثين ذهب معهم إلى الحج، لكنه تاه في أرض تهامة وعاد بعد الموسم وقد اشترى كُتباً من حجيج التقاهم في الطريق. حمل في قربته ماءاً من بئر قريبة من البحر وادّعى أنه ماء زمزم. قدّم الماء هدية لشيخ القرية، فضرب الشيخ للرجال موعداً في داره. قام رجال الشيخ بإفراغ الحظيرة من الأبقار والقش حتى تستوعب الضيوف. وهناك وقف مُحسن مع رجال القرية ليشاهدوا الشيخ وهو يطل عليهم من على سطح داره الكبيرة وفي يمينه قربة عامرة بالماء الإلهي، ماء زمزم. رفع الشيخ القربة إلى الأعلى وجعل الماء يتدفق من فتحتها الضيقة محدثاً صوتاً شبيهاً برعود الخريف. كان الرجال يسبّحون، والأطفال الذين جلسوا في الأطراف ترتعد شفاههم. أما النساء فكنّ يتأملن مشدوهات ووجلات عدا زِين التي تبيع البطاطا

المسلوقة للّحلوج. رأت زين كل ذلك وضحكت، ولا يعلم سوى الله ما الذي أضحك زين. أبعد الشيخ القربة عن فمه ومسح ذقنه وعنقه بكمه الأيسر. قال مُحسِن، وهو يحاول أن يلفت عيني الشيخ إليه:

"هكذا هي السُّنة يا شيخ. قالوا في الحَرم إن النبي كان يزّط الماء زطّاً"..

مساء ذلك اليوم قرر مُحسن أن يبني مقهى أسفل الوادي.

وكان أهل الوادي قد غيروا اسمه إلى الحاج زُط. لن يستعيد الحاج زُط اسمه إلا بعد ردح من الزمن عندما تشب الحرب الكُبرى ويغني المغني في صنعاء. غير أن الناس الذين كان سيعنيهم أن يروه مجدداً باسمه القديم كانوا قد ماتوا.

من أين يجيء النهر؟

في سوق الخَضِر التقى الشيخ أحمد بوالد زوجته قمر وحدثه عن الطريق الذي تشقّه الثورة وعن نواياه. قال إنه سيترك الوادي ويصحب عائلته إلى الجبل. كان والد قمر قد اجتاز الستين من عُمره ويرى أن ماء النهر يُذهِب العافية، وأن بنات الخالة هنّ الباقيات الصالحات المذكورات في القرآن. يجلس باعة القات حول جذع شجرة كبيرة، ثم يجلس حولهم باعة التوابل، ثم الآخرون على شكل حلقات. التقى الرجلان في حلقة التوابل وخرجا معاً وبيد كل منهما شيء ما، وتعثرا قليلاً في الحلقة الأخيرة، حلقة المواشي. سارا جنباً إلى جنب قاصدين دكاناً يبيع حلوى البحر والجبن الجبلي. قال الكهل إن الشمس اليوم أرتنا دُبرها، وقال زوج البنت إنها معتدلة مقارنة بالأمس. وكان اللُّحوج قد بدأوا يتوافدون إلى الوادي مثل الجن. في ركن الدكان يجلس كهل يضع على رأسه عمامة من عشر لفّات. كان اسمُه عبد الإله في شبابه، وكان أبّالاً، ولكنه مع الأيام أصبح يُدعى ذو القرنين. يأتي الناس إلى الدكان للاستماع إلى ذي القرنين وهو يلقي عليهم الأسئلة والألغاز، وعند ذهابهم يشترون من البضاعة أو يسرقون. وقف الرجلان في الباب، كان المحل مكتظاً وصاحب الدكان يغمغم "افسحوا مكاناً للزبائن، ادخلوا أو اذهبوا، ولكن لا تقفوا بالباب".

جاء صوت ذي القرنين، الكهل، وقوراً وهو يلقي سؤاله:

"إن خزائن الله حوت ما في السماوات والأرض عدا شيء واحد، ما هو؟".

تقافزت الإجابات وكان ذو القرنين يستغفر الله وراء كل جواب، إلى أن صاح الشيخ أحمد وهو يأخذ حماه متباعداً "الكذب يا ذا القرنين، الكذب".

سأل ذو القرنين عن صاحب الصوت فقيل إنه الشيخ أحمد، فردّ بصوت عالٍ لم يخنه وقاره "الشِّعر يا شيخ أحمد، الشعر".

سأل الشيخ أحمد حماه عمّا إذا كانت الدار التي في الجبل تطل على مغيب الشمس فقال حماه "نعم، ولكن لماذا يشغلك شأن المغيب وأنت في الجبل؟". لم يجد الشيخ أحمد في رأسه الكبيرة كلمات تكفي لشرح ما يدور داخل تلك الرأس. وهكذا فإن حماه لم يفهم شيئاً. لكن الحوار بين الرجلين مضى على أية حال إلى أن بلغا قرية الغيل حيث دار والد قمر. استقبلتهما السيدة أم قمر بفنجانين من قهوة البن بالزنجبيل، وكانت قد عادت للتو من النهر حيث غسلت فناجين القهوة. يمضي العمر بأم قمر ولكن صحتها لا تخذلها. أهل الوادي لا يشربون القهوة سوى في آنية الفخار، يسمونها الفناجيل، ولا يغسلونها سوى في النهر. يجيء نهر الوادي من مكان بعيد، وثمة ثلاثة أقوال شائعة عن مصدره. ما رواه الحاج زُط، قال إنه سار مع جَمَله

بمحاذاة النهر جُمعتين كاملتين إلى أن رآه ينشُع من صخرة كبيرة، وعندما صعد إلى الصخرة وجد عليها حفرة خضراء تشبه قدم الخضِر. أما ذو القرنين فيرى أن النهر يأتي من المكان الذي تلتقي فيه السماء بالأرض، ويؤكد كلامه بحديث لم يقدر أحد على حفظه. سائر الناس في الوادي عرفوا بالتجربة والرواية أن مياه النهر تصبح أقل كلما سلكت طريقك تجاه منبعه إلى أن يتلاشى ويختفي، وأنه قرب النبع يُسمع له أنين، وليس لديهم من تفسير لذلك. في السر يتهامسون قائلين إنه يخرج من بين أصابع الله، ولكن أحداً منهم لا يجرؤ على إخراج هذه الكلمات من صدره.

قالت السيدة أم قمر للشيخ أحمد، منفعلة:

"ولكن ابنتي ستبقى معي هُنا في الوادي"

قال زوجها:

"المرأة تتبع الزوج"

قالت الأم:

"إلا ابنتي"

رد عليها الشيخ أحمد ببيتين من الشعر فارتبكت المرأة ولم تدر هل تقول صدق رسول الله أم صدق الله العظيم، أم تسكت. فقررت السكوت هنيهة. نظرت إلى زوجها متوسلة له أن يقول شيئاً فتاه الرجل في لحظة صمت ثم عاد للحديث وسأل:

"ولكن لماذا تريد أن تستقر في الجبل؟ أنت لم تعد شاباً يافعاً ولا تدري كم بقي لك من العمر. ثُمّ إنك لا تملك أرضاً هناك ولا ذرية".

"وابنتي تعاني من آلام الظهر والعنق ولن تقوى على أعمال الجبل" قالت المرأة.

"ستعتاد على العمل، هذه ليست المشكلة. ما يشغلني هو أنها قد لا تجد شيئاً تعمله وليس العكس" قال الأب.

"سأنقل الطاحونة إلى الجبل على ظهور الحمير" قال الشيخ أحمد.

"وماذا لو أن أهل الجبل ليسو بحاجة إلى الطاحونة؟" سأل الأب.

"توجد طاحونة واحدة ولكنها لا تكفي. سألت أهل الجبل وأخبروني بذلك" قال الشيخ أحمد.

"ابنتي لن تعمل في الطاحونة يا أحمد" قالت المرأة.

"ابنتك لن تعمل في الطاحونة" قال الشيخ أحمد.

"إذن فسيقتلها الفراغ، ستجنّ إذا لم تجد عملاً" قالت المرأة.

"ستدر الطاحونة المال، وبالمال سأشتري الأرض، الكثير من الأررض. ستجد ابنتك عملاً. مثلما حدث معنا هُنا" قال الشيخ وهو ينظر في قاع الفنجان.

"اعمر مسجداً للخضر عليه السلام. اعمر مسجداً يا أحمد. امشِ ألف خطوة عن الطاحونة واحفر الأساس واعمر المسجد" قال والد قمر.

"لن تتغير أبداً، تفكِّر بالخضِر قبل أهل بيتك"

قالت الزوجة محتدة، وهمّت بالخروج ثم تراجعت. ثم نظرت إلى الشيخ أحمد وقالت منكسرة:

"يمضي العمر بسرعة في الجبل. قمر ستشيبُ قبلي إذا عاشت هناك".

قال الشيخ أحمد:

"لا ينبغي أن يخشى الرجل على عُمره في الجبل، كل شيء هناك يمشي ببطء، وكل شيء في متناول اليد"

قاطعته أم قمر "أنت تتحدث عن الرجل وأنا أقول لك المرأة"

قال أحمد، محاولاً استيعاب قلق السيدة الأم وتشتيت الأب:

"الجبل نعمة من نعم الله، كما يحفظ الأرض أن تميد بنا يحفظ أيضاً الصحة والأعمار. في الجبل لا يكثر الناس من الدعاء، هم ليسو بحاجة للتزلف إلى الله ولا إلى المساجد. الله يفهم ما يريدون ويرى حاجتهم. كل شيء بعيد عن أهل الجبل عدا الله. أنا ابن جبل، ولم نكن نشعر بالوحشة التي نجدها هنا في الوادي. ليس بين أهل الجبل والله من حجاب. انظروا إلى الأوبئة التي تدخل الوادي كل عام. أهل الجبل لا يعرفون الوباء. ولولا ضريح الشيخ الزعفراني لفتكت الحمى الثانية والحمى الثالثة بأهل الوادي في يومين. ولو شقوا الطريق حتى الوادي لجلبوا مع الطريق كل شيء، الأوبئة والذنوب والحرب"

قاطعه والد قمر، وقال كأنه ينهق أو يصهل:

"أين هي هذه الحروب التي ما تفتأ تتحدث عنها؟"

حملق الشيخ أحمد في عيني والد زوجته لبرهة، ثم واصل حديثه:

"أسألك إن كان ضريح الزعفراني سيبقى إلى الأبد؟ في تهامة تسببت الحروب في خراب العديد من الأضرحة، وعندما انحسرت عنهم وجد الناس أنفسهم بلا سند. اسأل باعة البلح والحلوى وسيخبرونك كيف يشعرون بعد خراب الأضرحة. القرى التي تزول

عنها الأضرحة ستدخلها الأوبئة والجن، هذا أمر لا يقبل الجدال. لدي أبناء وزوجة، أصبحت ضعيفاً بسببهم، سأبحث لهم عن جبلٍ يعصمهم"

شعر بالخجل لهذه الغلطة وتحاشى النظر إلى وجه السيدة.

"عشت سنوات طويلة هنا في الوادي وصرت من أهل السهل، شربت وتحممت في نهر الخضِر مرات ومرات ومرات"

توقف. بقي يحملق في عين والد زوجته ويكرر الكلمة "مرات" حتى فاض النهر في أسفل وكاد يسحب جملين وكلبة عرجاء.

ثم أكمل حديثه:

"ولكن نهر الخضِر الذي نعرفه لن يبقى هو نهر الخضِر. ما الذي سيبقى من النهر أو الوادي إذا وصل الطريق إلى منازلنا؟ ولماذا يشقّون الطريق؟ من أخبرهم بحاجتنا إليه؟ من هو ذلك الذي يريد الطريق؟ ولماذا؟ لأجل مزيد من الحروب. أتدري ما الذي سيجري لو وصل الطريق إلى عدن ورآه الإنجليز؟ هل نقوى على حرب ضدهم؟ لو ضربونا بمدافعهم، تخيلوا لو ضربونا بمدافعهم. عشنا في كنف الخضر عليه السلام، دَغْسته وشجرته ونهره وبركته. كل ذلك كان يحرسنا. كان يمر من وقت لآخر، حتى وإن لم نكن نراه. كان يرسل إلينا رسله، يجلسون في الأطراف ويتفرجون علينا ونتفرج

عليهم، ثم شيئاً فشيئاً يصبحون منّا. بالأمس عدَدْتُ الأعوام منذ آخر مرّة استقبلنا فيها رجلاً غريباً. 22 عاماً بالتمام والكمال. جاء غريبان بعدي، ثم انقطع طريق الغرباء. ما الذي حدث للخضر؟ هذا طالع سيء، ماذا لو أن الخضِر عليه السلام قد تخلى عن الوادي؟ ماذا لو أنه مات؟ أنا آخذ كلام الحاج زُط على محمل الجد، فقد رأى الرجل أثر قدم الخضر فوق صخرة في أعالي النهر. لا تستهينوا بما يقولوه زط، ذلك الرجل هو كلب الوادي، وهو يعرف كل شيء. لا يترك الخضر أثراً يدل عليه، وإذا ترك أثراً فإن ذلك سيعني أن شيئاً ما قد تغير في طبيعته، أنه مات أو قتل أو هاجر"

صمت قليلاً وتأمل الزوجين، وحاول أن يعدل عمامته.

"في النهاية أنا قادم من جبل ولن أحتمل مجرد التفكير في أن جثماني سيحمل على أعناق المُسنّين ويوضع في قبر من الطين والقش"

أدخل أصابعه تحت عمامته وغزل بضعة شعرات، ثم عاد لحديثه.

"أو أن تجرف السيول عظامي في ليلة بلا قمر. لو لم أتعرّف على ابنتك"

نظر إلى الأم التي تكبره بأكثر من عشرين عاماً.

"لو لم تكن شمس آب في ذلك اليوم أقوى من كل الأيام"

نظر إلى الأب الذي يكبره بأكثر من عقدين ونصف من الزمان.

"لكنتُ قد تركتُ الوادي. إذا أراد الله لي البقاء هُنا فسيرسل إليّ الهاتف مرّة أخرى".

[صمت].

"إن كان الهاتفُ لا يزال على قيد الحياة. سأصلي التراويح كل سنة في مسجد الشيخ الزعفراني، هُنا. هذا وعد مني. ولكني سأصلي باقي العام في الجبل".

أدخلت هذه الكلمات السرور إلى قلب الأب والأم، وكان الوعد الذي قدمه الشيخ أحمد في الختام أهم من كل كلماته.

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام جلست أم قمر إلى زوجها وسألته، بعد تردّد، إن كان قد فهم شيئاً من كلام الشيخ أحمد، فقام الرجل من مكانه واتجّه إلى نافذة مطلة على الوادي، وبعد برهة من التفكير بسؤالها قال إن السحاب البيضاء التي تحوم منذ الصباح لن تمطر، ولو بقيت في مكانها ألف سنة. أدخل رأسه في النافذة الضيقة وقال، وهو يفكر بحكّ سرّته:

"السحاب البيضاء مثل الكلبة البيضاء، هذه بيضاء وهذه بيضاء".

الحقيقة أنه أراد أن يقول كلاماً حقيراً ولكنه تحاشاه، فهو يحدث امرأة عجوز تعلم الخير والشر.

أما هي فلن تطرح عليه سؤالها مرة أخرى، وا كتفت بالقول إنها تتمنى لو أن النعاس الثقيل يدرك العُمّال الذين يشقون الطريق فلا ينجزونه قط.

وذهبت لبعض أعمالها.

مدافع الإنجليز

مساء اليوم الذي ذكر فيه الشيخ أحمد شيئاً عن مدافع الإنجليز سُمع للشيطان ضراط في أطراف الوادي. شعر الشيخ أحمد بالوجل، وأمسكت غصة ناشفة بحلقه، وجلس ينهر نفسه وينهر الأقدار، ويغمغم"يالها من دنيا".

أول الأمر سعد بخبر الثورة. لا يمكننا أن نصف سعادته تلك. فلمّا وصله النبأ من خلال المسافرين، وكان في مقهى زُط، كاد يتبوّل على نفسه من الفرح. تحدث إلى المسافرين وكان يهذي، وكانوا يهذون. كانت الثورة تبرق في العيون والكلمات، والحاج زطُ يذهب ويجيء ويفكر بالأيّام. ترك الشيخ أحمد مقهى زُط مع أذان المغرب وتمنى لثلاثة مسافرين طريق السلامة. صلى في المسجد القريب من المقهى، وفي طريقه إلى داره كان يفكر بكتابة قصيدة. كانت القصيدة إذا جاءته ترعش أطرافه وتُجري المياه في صلبِه. أبطأ في مشيه وسمح للظلام أن يغمره على مهَل. وبخطواته البطيئة وأنفاسه العميقة استطاع أن يستوعب القصيدة ويحتويها، ولكنه كان يتلفت في الظلام. يتلفت الشيخ أحمد كلما جاءته القصيدة. كانت زوجته قد أعدت له فتّة المرهوك، الطعام الذي يحبه أكثر من سواه. جلستْ قمر ظهر ذلك اليوم مع أبنائها الثلاثة على شكل دائرة وقاموا بتفصيص كومة من الذرة الطازجة التي جلبها الأبناء

من الحقل. قامت الأم وهرست حبات الذرة بالمرهك، وهو حجرة عريضة مقعرة تجري عليها حجرة ملساء مدورة، إلى أن صارت عجينة بيضاء. وكلما تكومت العجينة على جوانب المرهك جمعتها الأم بيديها وألقتها في وعاء كبير، ثم طرحت المزيد من الحَب الرطب بين الحجرتين. صنعت من تلك العجينة فطائر سميكة ووضعتها في تنّور الفخّار، وانتظرت. نضجت فطائر الذرة ببطء بسبب طراوتها وسمكها. أخرجتها من التنور وهي تُبعد رأسها عن النّار وتغمغم "اللهم اصرف عنّا عذاب جهنم" ومطّت حرف النون حين أحست بالحرارة تلسع خدها الأيمن. هرست الفطائر في وعاء كبير من الخزف وصبّت عليها الحليب مع قليل من السمن البلدي ووضعتها على النار، وتركتها تستوي على مهل. عندما لاحظت قمر أن رائحة احتراق خفيفة تصاعدت من جوانب الطبق أنزلته من على الموقد بسرعة ثم لحست أصابعها. حفرت بعصا خشبية سميكة حفرة في الوسط، صبّت فيها مقداراً من عسل السدر، ثم القليل من السمن البلدي وشردت قليلاً. توغل السمن في العسل، ثم صعد العسل إلى الأعلى وأخفى السمن، عاد السمن ليبرز من الجوانب وغار في الجدران. تساقطت قطع الخبز المهروس من الجوانب. تذكرت قمر تلك الليلة حين قال لها الشيخ أحمد إنه كان في دار الشيخ طه مدعواً على الغداء. قدمت حلّة عظيمة من فتة المرهوك، وفي الوسط بحيرة من السمن والعسل. جلس الرجال حول الحلة، ولاحظ الشيخ أحمد أن طه

يحفر بإصبعه إلى أن جرى العسل باتجاهه. قال الشيخ طه متباهياً "عرف النعيم لأهله فتعّما"، فرد عليه الشيخ أحمد ساخرا وضاحكاً "زاد النحِيتُ بأرضه فتهدّما". وضحك القوم. حتى الشيخ طه ضحك. حتى الشيخ أحمد الذي يبتسم لِماماً ضحك في ذلك النهار.

لاحظت قمر أن الفتة بدأت تجفّ من الحواف، فتنبّهت إلى أن النهار يوشك على الرحيل وأن الشيخ أحمد لم يعُد بعد. تعرفه بلحيته، منذ دخل عليها أول ليلة وهو يملك لحية ويلبس عمامة، ولا تعرفه بغير تلك الصورة. لطالما تمنّت لو أنها رأته قبل تلك الأيام. وكلما توغلت في شبابه وطفولته رأت له لحية وعمامة.

في طرف ديوانه الكبير جلس الشيخ أحمد إلى جوار فانوسه بعد فراغه من الطعام. سمعت قمر أعذار زوجها، وفضّل الاثنان أن يتحدثا عن أشياء بعيدة بعض الشيء. تركته وشأنه وذهبت لشأنها. أخرج دواة الحِبر، وضعها إلى جوار الفانوس، غمس قلمه في الدواة، أراد أن يكتب القصيدة لكنه كان قد نسيها، أو نسي مطلعها. إذا ضاع منه المطلع يفقد القصيدة. الرجل المثقل بكل تلك الآفات التي لا نعرفها ولا نفهمها تعرض لسعادة من فرط عظمتها ألهمته قصيدة ثم محتها. اتهم فتة المرهوك. المرهوك يذهب الشِّعر، سمع هذا مراراً وهو يكبر في الوادي، ومن سوء الحظ أن كل

الذين يعرفون هذه الحقيقة ماتوا الواحد تلو الآخر ولم يبقَ منهم سواه. أراد أن يقوم إلى زوجته ويصرخ في وجهها، لكنه استطاع احتواء غضبه، فما الذي تعرفه قمر عن الشعر بحق الله. هز رأسه ثم نهر نفسه قائلاً: بل ما الذي يعرفه أهل الوادي عن الشعر. ظل ممسكاً بالقلم يتأمل الورقة الصفراء الفارغة، ينتظر المدخل، مدخل القصيدة. سقطت نقطة حبر كبيرة من طرف قلمه ووقعت على الورقة، بقيت في مكانها تهتزّ كأنها كوكب دُرّي. لوهلة تمنى لو أن قطرة الحبر تلك تجد المدخل وتكتبه. حدّق الشيخ أحمد في تلك القطرة طويلاً، طويلاً ففتحت له أبوابها. رأى أناساً يعملون في الظلام وبأيديهم مشاعل، كانت شفاههم تتحرك ولا يُسمع حديثهم. ارتجفت أطرافه، بقي ممسكاً بالقلم، رفع رأسه إلى الأعلى ثم إلى الخلف فتلاشى الرجال وعادت قطرة الحبر إلى سوادها. حدّق فيها مرّة أخرى، واصل التحديق، اهتزت القطرة قليلاً ثم أضاءت فرأى الرجال مرة أخرى وهم يشقّون طريقاً ويتنادون فيما بينهم، وكأنه سمع رجلاً بينهم يحلِف بالله. استوى واقفاً وهو يرتعش، التقط عمامته المعلقة من أمامه ووضعها على رأسه وهو لا يدري لماذا. تراجع إلى الوراء قليلاً إلى أن سكنت القطرة. نادى على أبنائه الثلاثة وطلب منهم أن يجلسوا في الطرف الآخر من الديوان ثم دعاهم إليه الواحد تلو الآخر. ذو الأعوام العشرة قال إنه لم يرَ شيئاً، أما ذو الأعوام السبعة فقال إنه رأى وجهه وعمامة أبيه. الطفلة الصغيرة، ذات الأعوام الخمسة،

جلست وهي تلعب بسفينة من الورق وحدقت في قطرة الحبر. تجمّدت أنفاس الأب وجعل ينقل بصره بين عيني طفلته والقطرة. غرقت الطفلة في مشاهداتها كأنها دخلت في حلم. همس فيها والدها، كما لو أنه خاف أن يوقظها، إن كانت ترى شيئاً فهزت رأسها وواصلت تحديقها.

"ماذا ترين؟" سألها

فقالت "طريقاً طويلاً وسفناً في آخره"

صاح الشيخ أحمد الله أكبر، وضمّ ابنته.

نام الشيخ أحمد على سطح منزله تلك الليلة. استفاق من نومه مرّات ولم يفهم سبباً لذلك. كانت أحلامه متداخلة واستحال عليه فصلها عن بعضها. في الإفاقة الأخيرة، قبل الفجر، فتح عينيه وهاله الليل لأول مرّة فأغلقهما. راح يركض داخل أحلامه بحثاً عن إشارة ما. لذلك نام على السطح، اعتقد أنه سيلتقط شيئاً في منامه. عثر داخل شبكة أحلام تلك الليلة على حكاية صغيرة: رأى حطّاباً يضرب الأشجار بحافة كفّه، يقشر لحاءها بأسنانه، ثم يحمّلها على ظهر نمر. فكّر بهذا الحلم هُنيهة فوجده فارغاً. الإشارات لا تمنح نفسها بيسر، لا بد أن واحدةً منها تخبّئ نفسها، قال الشيخ أحمد لنفسه. ثم انطفأت كل الأحلام. سحب الرجل جسده إلى الكنيف، توضّأ، لمس بكفيه

جروحاً على الساقين. لا بدّ وأنها من جروح الليلة الماضية. يتكرر معه الشيء نفسه إذا ما ألمّت به القصيدة خارج داره. وقف للصلاة. نظر إلى الجبل العملاق وهو يطل على الوادي وسمع له هديراً غامضاً. لوهلة فكر بالصلاة ناحية الجبل، ثم تذكر أن الشمس تأتي من هُناك. ارتعش الهواء في رئتيه وكاد يحشرج، فقد خشي أن يكون ممن صلّوا للشمس في حياتهم. فرَش سجادته ناحية الشمال وأذّن للصلاة. صّلى ركعتي السنّة وجلس يتأمل في نفسه، استغرق في تأمله حتى إنه أبصر في أعماقه مشاعل وأناساً يشقون طريقاً. بانَت الحافة العليا للشمس، ثم كل القُرْص. تذكر حينها أنه لم يصلّ الفريضة بعد فقام وركع، ثم قام وركع. وقبل أن يسلّم لم يتذكر عدد الركعات فسجد سجدتي سهو. وحين استوى ليسلّم ويختم صلاته توقف لبرهة وسأل نفسه "هل سهوتُ في سجدتي السهو؟" فسجد مرة أخرى. سمع صوتاً ساخراً من الجبل يناديه باسمه: المُصغّر لا يُصغّر يا شيخ أحمد. قام الرجل ولفّ سجادته ونزل إلى زوجته فوجدها تتجول في المنزل وتردّد أغنية قديمة يقول فيها وليّ الله إنه يحب صناعة المعروف للأرامل. وقف الشيخ أحمد أمام زوجته، وقد تجمد الدم في عنقه في فجأة. سألها ما إذا كانت تفهم معنى الأغنية، ولمّا تأكد أنها لا تعرف المعنى تركها وراح إلى ديوانه واستلقى على ظهره وغطى عينيه بذراعه.

أخذت الحرب شكل لبوة وقفزت إلى رأسه، كانت تتلوى وتتقلب داخل الطينة الرخوة التي في جمجمته. تعوي حيناً، وتقف حيناً وتئن. قالت له الحرب وهو يحاول الإفلات منها: أنا قدرك. تقلب الشيخ أحمد في نومته، أمسكت به اللبوة، أجلسته أمامها ووقفت تخطب فيه:

"امضِ بعيداً حتى لا تجد للشمس أثراً، ستجدني هُناك. حُد يميناً أو يساراً، ادخل في الجبال، استخدم الأطفال للتجسس عليّ في قطرات الحِبر، صلّ للجن والأولياء، تشبّث بالسحاب الأبيض أو بمواسم الحصاد. اكتب القصائد واطمس مداخلها، أنا قدرك. كنتُ سرّاً لا يعرفني أحد ولكنكم جئتم بي، والآن تعرفونني حق المعرفة. بعد كل هذه الأعوام لا يمكنكم أن تدّعوا أني غريبة عنكم، لا تلحقوا بي الآثام واللعنات، أنا ابنتكم وأنا أمّكم. لماذا تريد الآن الهرب منّي وأنت لم تفعل ذلك من قبل؟ افتح عينيك، دعني أنظر في عينيك وفي عمامتك. جرحتك القصائد أكثر منّي، وآذتك غربتك أكثر مما آذيتك، فلماذا تهربُ الآن؟ سأجدك ما دمتَ تكتب القصائد ولو اختبأت في صخرة. اصعد الجبل، اصعد ما تيسّر لك حتى تنقطع أنفاسك. يوماً ما سأجدك، سأنتظرك في الآكام والضراب وفي منابت الزرع وبطون الأودية. وإذا واصلت الهرب فسأجدك في بنيك وأحفادك. أنا الحرب، أنا ابنتك وأمك وجدتك. ما جئتُ من تلقاء نفسي ولن

أرحل محمّلة بآثامكم وخطاياكم. وإن كان ولا بد من الفراق فأعيدوني إلى سرّي طاهرة ومكنونة كما كنت، واحملوا اخطاءكم على أكتافكم واغربوا عن وجهي".

نهض الشيخ أحمد.

كانت الشمس في الأعلى.

غادر داره وهو لا يعرف الوجهة، لم يرُد على زوجته التي سألته ما إذا كان سيعود لتناول الغداء في المنزل، ولامته لأول مرة على تأخره بالأمس. كان ظلّ كل شيء مثله. مرّ بسوق الخَضِر ورأى الخلائق. فكّر بصديق، لا بد لتلك الشدّة من صديق. سيجلس قليلاً إلى ذي القرنين في الدكان. لم يكن ذو القرنين قط جليساً مريحاً بالنسبة لشيخ يجيد القراءة والكتابة كالشيخ أحمد. ما إن دلف إلى الدكان حتى سمع صوت ذي القرنين طالعاً من زاوية في الدكان: "ما هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعيَ به أجاب وإن سئِل به أعطى؟". استدار الشيخ أحمد وغادر، واتخذ سبيله ناحية أسفل الوادي.

صار فؤاده فارغاً. هل يمكن أن تكون قطرة الحبر تلك هي اسم الله الأعظم؟ ولماذا كشفت سرّها فقط له وللطفلة؟ امتلأ صدره بالإجابات أكثر من الأسئلة، ولوهلة خطر له أنه رأى الله. في رأسه هدير، هدير لا يوقفه شيء. في عمق ذلك الهدير يسمع "لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني". يقف الشيخ مشدوها

وتائهاً، يتلفت يمنة ويسرة، الجبال في مكانها مستقرة. ينظر إلى الشمس، إلى عين الشمس، ثم إلى قدميه. ظله صار أقصر منه. لا بدّ وأنه الضُّحى. قفز على جدار منخفض من الشوك وصلّى ركعتين تحت شجرة كما يفعل كهول الوادي في مثل تلك الساعة. رأته امرأة، وكانت تتحدث إلى أخرى، فألقت عليه السلام وسألته إن كان سيشتري أضحية للعيد أم سيتشارك؟ ثم أردفت ضاحكة: الشيخ أحمد لا يتشارك مع أحد، اللهم لا حسد. أعلى الوادي يشتري الناس خرافاً ويضحّون، أسفل الوادي يتشاركون في جماعات، كل جماعة تقتسم لحم ثور واحد. شعر الشيخ أحمد بالرضا لتلك المداعبة، ألقى نظرة حانية إلى المرأتين، وادّعى أنه ابتسم ولكنّ أياً منهما لم تلحظ ذلك. رأى أن الأخرى التي لم تقل شيئاً كانت مكتنزة أكثر، وأنه سبق له أن أجلسها إلى جواره في مكان ما وقصّ عليها قصة. واصل سيره بين حقول الذرة الشامية والخضرة، حاول تذكّر تلك المرأة وذلك اليوم وكاد يعثر داخل جمجمته المكتظة على شيء ما. غير أن الخيالات سرعان ما كانت تفلت منه. توقف في مكان ما في الطريق، نظر يمنة ويسرة، لاحظ أن روحه هدأت قليلاً. رائعة تلك المرأة الممتلئة، أشغلته عن المواضيع الخطرة التي كانت تهدر في رأسه. لذلك خلق الله النساء وخلق لهن الشحم، ثم وزعه في الأماكن الصحيحة. العرب التي قالت إن الشحم من حلية المرأة لم تعرف حقيقة شحم المرأة، فكّر الشيخ أحمد وهو يزيل شوكة علقت بقدمه.

سيواصل البحث عن المرأة في ماضيه، واصل البحث عنها في ماضيه. وعندما صار بمقدوره رؤية مقهى زُط عثر عليها في الماضي البعيد. عثر عليها، كانت أقل امتلاء وكان شعرها هادراً ورهيباً. ولكن، وبما أن الحاج زُط كان واقفاً أمام باب المقهى ويضحك بصوت عالٍ لسبب غامض، فقد أدرك الشيخ أحمد أنه لم يعد بحاجة لمعرفة أي شيء عن تلك المرأة الممتلئة التي رآها مرتين. وبدا له الشحم المكنوز في نهديها أقل أهمية من ضحكة الحاج زُط، ذلك الذي كان واقفاً أمام مقهاه يتفكّر في شحم امرأة مرّت بالقرب منه.

"الدولة تشق طريقاً، هل سمعت بالقصّة؟" سأله الحاج زُط وهو يقدم له فنجان القهوة.

"نعم، ولكن لماذا يفعلون ذلك؟" قال الشيخ أحمد رافضاً.

"سيربطون الوادي بالمدينة من هذه الجهة [وهو يشير بيده]، وبمدينة عدن من تلك الجهة [أشار بيده]. هل تصدق أننا سنصبح جزء من عدن ومن بريطانيا والإنجليز؟" وانفجر ضاحكاً.

الحاج زُط يضحك دائماً، يضحك عن طيب خاطر، وأكثر ما يضحكه نكاته وتعليقاته. شاء أحمد أن يحذره من مدافع الإنجليز ولكنه خشي ضراط الشيطان.

"منذ اشتريتَ هذا الراديو يا حاج زُط وأنت تصبح رجلاً آخر يصدق كل ما يسمعه. أنت صاحب مقهى تسقي المسافرين، كُن حذراً مع القصص والأخبار".

قال الشيخ أحمد أمام صديقه، وكاد يكمل حديثه لولا أنه تذكر شيئاً ثم سرعان ما أفلت منه ذلك الشيء.

الشيخ أحمد ليس على ما يرام. شجر الوادي ليس على ما يُرام. مدافع الإنجليز ليست على ما يُرام.

اتفق الرجلان على الذهاب معاً لمعاينة الطريق. استأمن الحاج زط على مقهاه رجلاً من أهل الوادي، ومضى الرجلان جنباً إلى جنب. وقبل أن يبلغا المكان سمعا هديراً رهيباً، أصوات طبول، غوغاء، ورياحاً قادمة من الخلف من جهة الوادي. كانا قد اجتازا تبّة عالية. توقف الرجلان في الطريق وانتظرا. بانت مقدمة الحشود، الرجال السود يضربون المرافع والطاسات، وهي طبول البادية.

الشيوخ في المقدمة، المتصوفون بعدهم، وخلق لا حصر لهم في الخلف. يمسك كل شيخ بيد رفيقه، يمسك كل صوفي بخصر رفيقه، يمضي الجميع إلى الأمام صادحين بالأهازيج. كانت الطبول طبول حرب والأهازيج أهازيج فرح، وكان الناس عابسين وسعداء، وكان السلاح أقل ما يكون ورغم ذلك فقد وجد الرجلان المنتظران رائحة

للحرب المالحة، تلك التي تأتي من قبل البحر. قال الشيخ أحمد لنفسه "ستبقى تلك الرائحة في أصواتهم وطبولهم إلى الأبد". أما الحاج زُط فلم يحدث نفسه بشيء على الإطلاق. كان سعيداً لا يريد أن يفهم شيئاً. انضم الرجلان إلى القافلة الرهيبة، كل رجل عاين القافلة تلك دخل فيها، هكذا قال لهما رجل أو رجلان بصوت عال. بقيت القافلة تكبُر، وتكبر، إلى أن وصلت إلى غايتها عندما اختفى ظل كل شيء.

عاد الرجلان في المساء وجلسا في المقهى. كانت أخبار القافلة هي الموضوع.

"الآن وقد أعلنت كل القرى والوديان الولاء للثورة، على الثورة أن تفعل الشيء نفسه" قال الشيخ أحمد.

"وماذا عليها أن تفعل؟ يذهب الجيش حاملاً المرافع والطاسات إلى القرى ليرد الزيارة؟" اعترض مسافر متحمّس للثورة.

نظر إليه الشيخ أحمد، ضحك أحد زبائن المقهى، تشاغل الحاج زُط بجمع الفناجين الفارغة. قال الشيخ أحمد بعد برهة قصيرة من الصمت:

"أن تحمي الناس من الناس وأن توقف الحروب الصغيرة التي أهلكت الحرث والنسل".

قال المسافر:

"ما قامت الثورة سوى لأجل هذا"

قال الشيخ أحمد:

"البشر لا يتعلمون قط"

قال المسافر، وهو يلمّ أشياءه:

"سيتعلمون"

اقترب الحاج زُط من الشيخ أحمد، جلس إلى جواره، تقهوى الاثنان كل من فنجانه، كان ضوء الشمس قد شرب البرتقالي فالأصفر، ثم بدأ بمزجهما معاً. أراد الحاج زُط أن يقول شيئاً غير أن نهيقاً في الخارج جعله يتريّث. ورغب الشيخ أحمد في قول شيء لكنه لم يكن متأكداً ما إذا كان له معنى، فآثر الصمت. توقف النهيق في الخارج ونسي الحاج زُط ما كان يريد قوله.

"كأنني أرى الغروب لأول مرّة" قال الحاج زُط ووضع حافة الفنجان بين شفتيه ونفخ.

"قرأت في كتابٍ أن الشمس لا تغرب سوى من جهة البحر"

قال الشيخ أحمد.

"أنت تكره البحر يا شيخ أحمد وتكره الحرب ولا أستبعد أنك تبغض الشمس" قال الحاج زُط، وضحك. عاد النهيق أقوى من ذي قبل.

"قبل شهرين قرأت كتاب الجواهر اللمّاعة في استحضار ملوك الجنّ في الوقت والساعة" قال الشيخ أحمد، وأراد أن يكمِل.

قاطعه الحاج زُط:

"ودارت بك الأرض، دار السقف، دار رأسك، دار كل شيء كما يحدث مع كل من يقرأ ذلك الكتاب"

وانفجر ضاحكاً. لو رأيتم الحاج زُط وهو يقهقه لآمنتم بالله العظيم.

قام وغادر المقهى وشتم الحمار بالأم وعاد. ما إن جلس حتى عاد الحمار إلى النهيق، فغمغم الحاج زُط:

"ابن القحبة ينهق عن قصد".

"حديثك عن البحر ذكّرني بالكتاب يا حاج زُط. هل تصدق الرواية التي تقول إن البحر بيت الجن؟" قال الشيخ أحمد مبتسماً.

الحقيقة أن الشيخ أحمد، بالنسبة لكثيرين من أهل الوادي، لا يتبسّم إلا نادراً. وعندما نقلت له زوجته ما يقولونه ردّ وهو يبتسم "أخبئ ابتسامتي للحروب" فهالها ما رأته لا ما سمعته.

"والله يا شيخ أحمد أنا لا أريد أن أفاجئك ، ولكني لا أؤمن بحياة الجن. مع الأيام هنا، في أسفل الوادي، اكتشفت أن كل الحكايات التي تروى عن الجن كانت تروى عنّي. كل ما قالوه في تلك الأيام كنتُ أنا. أنا الذي قتل كلبين أسودين في ليلة مقمرة، ألقيت بجثة ثعلب في البئر، سرقت المسافرين، قفزت على امرأة في ليلة القدر وكتمت نفسها، شرمتُ أذن خروف وعلقته من ساقيه، أنا الذي كان يقطع فاكهة العَنْب إلى فلقين يأكل واحدة ويلقي بالأخرى في الطريق. أنا جنّي تلك الليالي، فعلتُ كل ذلك لأصرف الملل والغضب، كنت وحيداً مثل هذا المقهى. وبعد أن بنيت هذا المقهى وصرتُ رجلاً صالحاً اختفى الجنّي وعاد إلى بيته في البحر. نبذوني فأخفتهم. الخوف بالخوف، والجن بالجن"

وعاد للقهقهة.

لاحظ أحمد مَراراً في قهقهة صديقه، وتذكر مَرار نفسه.

في داخل الشيخ أحمد روح شديدة المرح، ولكن جسده يعجز عن الابتسام. إنه منقسم في داخله وهو يعلم ذلك. أنعشته قهقهة صديقه رغم مرارها، وسحبت خيطاً أو اثنين من ألمه. كم خيطاً على المرء أن ينزعه من روح الشيخ أحمد ليحرره من ذلك العالم اللجّي؟ عليكم أن تصدّقوا إذا قلتُ لكم إنه غادر مقهى زُط بعد صلاة العشاء وأنه تأخر حتى ذلك الوقت، رغم إرهاقه الشديد، لعلّه يلقى الهاتف في طريقه.

خطر له وهو يغادر المقهى أن يسأل الحاج زُط "ماذا لو التقيت الهاتف الليلة"؟

يزجره الحاج زُط، وقد توجس من حال صديقه:

"في هذه السن وقد نبت لك الشعر الأبيض؟"

يصمت الشيخ أحمد. يردعه الحاج زُط:

"دعنا نكبُر يا شيخ أحمد، دعنا نكبُر. في آخر الأمر سنلقى الله مهما اختلفت السبل"

ما الذي جعله الآن، أو تلك الليلة، يعتقد أن خلاصه سيكون في يديّ الهاتف مرة أخرى؟ في ظروف مشابهة، قبل عقود عديدة، تاه الشاب أحمد ووجده الهاتف أسفل الجبل فجاء به إلى الودي. أو لنستخدم كلمات الأبّال آنذاك، الذي سيكبر وسيصبح اسمه ذو القرنين: الرجل الصالح الذي انتشله من التيه. تلك أيام لم يكن له من يد فيها، وهو الآن يملك أيامه. لم يحدث أن جاء الهاتف بأحد ثم عاد للسؤال عنه.

يمضي الشيخ أحمد في الظلام. ليس في الطريق من أحد. ولم يكن هناك من قمر. كان كل شيء مكتملاً وناقصاً وكانت السماء أدنى من الجبل لأول مرّة، حتى إنه سأل نفسه "علام السفر إلى الجبل إذن؟". الصوت الذي جاءه من السفح، من قرية الرعيان، كان صوت كلب أو بشر. كانت الأرض دافئة وكان جسده بارداً بعض الشيء. على حدود قرية صغيرة اسمها الشجَن، قريبة من النهر، مرّ بمقبرة فأسرع الخطى. همهمَ ماشياً "السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون. أسأل الله لي ولكم العافية". لم يكن عبور المقبرة بالأمر السهل، ليس هذه المرة. دُفن في المقبرة كثيرون ممن عرفهم وصاحبهم. أغلبهم ماتَ بسبب الحُمّى، ورجلٌ رفسه جمل. الشيخ الزعفراني هو الوحيد الذي لم يصب بالحمى في حياته ولم يمت بسببها، قبره بعيد عن سائر القبور وعليه مسجد بلا قبة ولا منارة. لطالما كان مسجد الزعفراني ملاذاً للشيخ أحمد ليس من الحُمى، وهو ما تخصص به الزعفراني بعد موته، بل من أشياء أخرى لم يحدث قط أن فهم الشيخ أحمد كُنهها. يواصل طريقه جوار المقبرة، الليل حوله، الليل فوقه، الليل بداخله. سمع كثيراً عن الموتى الذين يتزاورون في الليل، عن الملائكة الذين ينزلون ليلة كل جمعة ليضربوا بن سعيد. سمع عن استغاثة بن سعيد إذا ما اشتد به العذاب، عن صوته الذي يشقق الأفئدة ويغلي مياه البئر الوحيدة. سمع عن مريم التي كانت تقول الشعر

ولما ماتت عاقبها الله بأن جعلها تخرج من قبرها في الليالي اليتيمة، وتغني قصائدها. ما من أحد من الذين عرفهم سمع مريم وهي تغني، ما من أحد يريد أن يسمعها وهي تغني، جميعهم يبغضون الليالي اليتيمة، الرجال يسبّون تلك الليالي. ذو القرنين يواجههم، يقول لهم زاجراً "لا تسبوا الليالي، الليالي هي الدهر، والدهر هو الله". الموعظة لا تصلح علاقة المرء بلياليه وأيامه، إذا توقف أنين بن سعيد ونامت مريم ما تبقى لها من أيام في قبرها فإن أهل الوادي سيعطفون على الليالي اليتيمة. ما من خير أحبّ إلى الله من المسح على رؤوس الأيتام. ومريم كانت، منذ طفولتها، شديدة اليتم. لا يجد ذو القرنين أمام مثل هذا الحِجاج شيئاً يقوله سوى "قلتُ لكم، لا تسبوا الدهر، الدهر هو الله".

الشيخ أحمد رجل متماسك وهو في الأساس ابن جبل لا تفزعه مثل هذه الترّهات، ولو أن مريم غنّت تلك الليلة لفلقته إلى شقّين، ولعاش الشق السيء منه إلى جوارها إلى الأبد. يحاول طرد هذه الخيالات من رأسه، يسرع الخطى، يصل.

هو الآن في داره، زوجته تنتظره، لم تأكل شيئاً منذ الصباح وفي عينيها شرر. تأخر الشيخ أحمد مرّة أخرى، كأنه لا يكترث لمشاعرها. يعرف الشيخ أحمد عن زوجته أن

عينيها إذا ملئتا بالشرر فإن كلماتها تصبح أكثر رقة. الأمر يقلقه بلا شك حتى وإن كان رجلاً قادراً على إخافتها في آخر الأمر.

"دخلتَ المدينة مع الخلائق؟" سألته قمر.

"نعم" قال باختصار، وتشاغل عنها محاولاً تجنب مواجهتها. استخرج الدواة، أحضر ورقة نظيفة، ذهب إلى طرف الديوان وجاء بالفانوس. الزوجة تراقب حركاته وشروده، زوجها ليس على ما يُرام.

"أخبرتني غزلان عن قطرة الحبر، قالت لي كل شيء" قالت.

توقف الرجل في منتصف الديوان، نظر إليها متسائلاً. الشيخ أحمد يحبها كثيراً، بل كثيراً جداً. فقد وجد في كل ولد من أولاده الثلاثة علامة قاطعة على أنه الأب. هذا أمر يستحق التقدير والإخلاص من جانبه.

أكملت الزوجة حديثها:

"فعلنا مثلما فعلتَ أنت ولم نرَ شيئاً. رأينا فقط ظلالنا".

الشيخ أحمد يتأمل ملامح زوجته، يا لها من امرأة جميلة. تشبه ذلك اليوم من آب عندما سمعت منه القصيدة ولم تفهم منها شيئاً. الزوجة ترتبك، تعرف أن الرجال قد

ينفجرون لدواعٍ غامضة ويصيرون وحوشاً لأتفه الأسباب. تعرف ذلك مما تراه وتسمعه، بيد أنها تعلم حق العلم أن الرجل لا يصبح وحشاً كاملاً في الليل. في الليل يصير منافقاً بائس النفاق، تعلم قمر ذلك وتجده سلوكاً مفهوماً. حتى إن أمها أوصتها قبل سنوات بأن تكون حذرة في تصرفاتها نهاراً وأقل حذراً في الليل.

"لا تخافي من الرجال في الليل ولا في مواسم الحصاد"

قالت أم قمر، ذات الدراية والخبرة، في يوم من الأيام.

ينتظر الشيخ أن تقول زوجته شيئاً، تسكت الزوجة. ينظر في عينيها، يجلس على ركبتيه، ينظر في عينيها، تنظر في عينيه، لا تقول شيئاً ولا يقول هو أي شيء.

هذا الحبيب

اللّحوج، وهم قوم سُمر يُقال إنهم قادمون من جنوب البلاد، يتوافدون إلى الوادي. توزعوا على حقول الذرة. يملك الشيخ أحمد أراضٍ كثيرة في الوادي وفي سفوح الجبال القريبة. له دار من ثلاث طبقات، في الطبقة السفلى يملك مدفناً، وهو مخزن كبير وعميق تحت الأرض تكدّس فيه الحبوب. اللحوج يواصلون العمل في الحقل القريب من الدار، يتوزعون في مجموعات صغيرة، هناك أطفال ونساء شابات. يأتون في مواسم الحصاد، مع السحب البيضاء، ويختفون بعد ذلك. يحدث هذا كل عام مرة واحدة. لم يسألهم أحد قط عن اسم البلاد التي يجيئون منها، ربما سألهم الأجداد، لسنا متأكدين.

من الأعلى، من دار الشيخ، عاينت السيدة قمر المشهد: الخَدم والزرع وصوت النهر والذرة وشمس أيلول. راعها ما سمعته بداخلها. ما الذي روّعها؟ ربما تذكرتْ تلك القصة، قصّة الصليحي الذي كان يملك الأرض. وكان في مواسم الحصاد ينظر إلى غلته العظيمة فيضربه الجنون. كان يستدعي حشداً من نساء اللحوج، يوقفهن خلفه، بينما يمسك بطيرين من تلك الطيور التي تحلّق بين آب وأيلول، يضع أحدهما في

إناء بارد والآخر في إناء ساخن. ثم يغني، وتغني النسوة من خلفه: الصليحي والإله اقتسما، للصليحي الأرض ولله السما.

وفي ليلة من ليال آب، في واحدة من السنوات، اختطفه الله وألقى به في مكان قريب من النهر اسمه الخرابة. الذين عاينوا جسده هناك لم يعرفوا ما إذا كان حياً أم ميّتاً.

عليها أن تنزِل إلى المطبخ، أمها هناك وامرأتان من الجيران. سيتوافد ضيوف الشيخ أحمد للسّمَاع، وسيلقون القصائد ويقيمون الحَضْرة حتى تنصرف الجنّ إلى صخور الجبل مرّة أخرى. تسامع الناس بذلك وودّ كل شخص لو يحضر، لكن الشيخ اختار ضيوفه. قمر، زوجة الشيخ، هي الشخص الوحيد الذي يعرف السبب الحقيقي وراء تلك الحفلة. وقع الشيخ أحمد في الورطة الأكبر في حياته، فهو لم يعد يعرف ما إذا كان قد وجد الله أم الشيطان. إن عادت قطرة الحبر، بعد السماع والحضرة والأناشيد، وفتحت له الأبواب فقد وجد الله. إن اختفى كل شيء أمام عينيه وفي عيني طفلته فقد كان شيطاناً رجيماً نجح السماع في إعادته إلى حبسه. سيختبر أحمد إيمانه وعقله. وبرغم أنه قد وقع على كنز الكنوز كلّها إلا أنه في أعماقه كان يتمنى لو أن الكنز يختفي، أن تطرده الأناشيد والصلوات، وأن يعود إليه صوابه المجنون.

إن الشيخ أحمد نفسه لا يعرف السبب الحقيقي لتلك الحفلة، لم ينفذ إلى أعماق نفسه كما فعلت قمر. ترك لزوجته أموراً كثيرة لم يتدخل فيها، بما في ذلك معرفة باطنه وآلامه. قمر، الزوجة، تعرف الكثير عن تلك الهاوية التي في روح الزوج، ولطالما أطلت عليها. رأتها مراراً. حتى في تلك اللحظات اللاهبة حين كان أحمد يصبّ في رحمها المن والسلوى كانت تنظر في عينيه المشتعلتين وترى الهاوية.

أراد أن يلمّ الناس إليه ليحتمي بهم من أشياء غامضة لم تفصح عن نفسها بعد. سيتمنى من الآن لو أن السماع استمر إلى الأبد. لو أن المتصوفة الرائعين الذين سيحضرون بعد قليل جلسوا في حلقات حوله وهزوا رؤوسهم وأجسادهم إلى الأبد، إلى أن تأتي ريحٌ من الشام وتسلب الأرواح.

جاء الضيوف واحداً بعد الآخر. لا بد من ذلك، لا بد من ذلك اليوم. يفكّر الشيخ أحمد بحبره الممسوس، بالجنّ الذين باتوا يسكنون في دواته ولا يديرون وجوههم سوى للأطفال. بطفلته غزلان، ربما سيقفز الجن من الدواة إلى دمها ويعيشون هناك إلى الأبد.

لا بد وأنهم جن، أو أغلب الظن أن الأمر كذلك.

صعد مع أول الضيوف إلى السطح، الشمس في منتصف السماء، خيّل إليه أنها في المكان ذاته منذ أيام. تجوّل الرجلان، تأملا الوادي من جهات مختلفة، السطح مسوّر بجدار ارتفاعه يصل إلى إبط الرجل وذقن الصبي.

يداعبه الضيف:

"جعلت منك الطاحونة ملكاً يا شيخ أحمد".

يرُد أحمد وهو يشيح بيده:

"الملك لله".

تدخل ثلاث لحجيّات إلى الحظيرة المحيطة بالدار، يُلقينَ بكومات من أكواز الذرة. هناك تجمع الذرة وتجفف، وهناك تضرب بالعصي الغليظة أياماً حتى تتساقط حبّات الذرة، ثم تجمع وتُسكب في المدفن. وفي مواسم القحط كان الشيخ أحمد، أحياناً، يعطي الذرة مقابل الأرض. فعل ذلك مبكّراً، ومع الأيام صار يهب الذرة للمحتاجين بلا مقابل. مات كثير من الذين كانوا يعطونه الأرض مقابل الذرة وهم يئنّون مثل الضفادع. وبقي الرجال الذين لم يشهدوا تلك الأيام، ولا يتذكرون سوى أحمد الذي يسد الرمق. أو الشيخ أحمد.

منحدر خفيف، تتسابق الفتيات الثلاث، يضحكن، يركضن، يصلن الحقل، ينهمكن في العمل. من الأعلى ينظر الرجلان. يغمغم الشيخ أحمد "ما شاء الله". يقول الضيف، وقد هم بوضع يده على عضوه "السمراوات ينفعنَ لوجع الظهر". يردد الشيخ أحمد بيتين من الشعر. يسأله الضيف "هل تحفظ شعراً عن هذا؟". يسأله الشيخ أحمد "ماذا تقصد بهذا؟". يقول الرجل: وجع الظهر والأشياء. يفكّر الشيخ أحمد برهة، ثم يقول لضيفه: إذا وصل الطريق الجديد إلى الوادي فسينتهي كل هذا، سينتهي كل شيء. فمن الجهة الأخرى ستأتي مدافع الإنجليز، أنت لا تعرف مدافع الإنجليز. ثم يسأله دون أن ينظر في عينيه أو ينتظر جواباً "أين وصلوا؟". لم يستطع الضيف الوصول إلى صلب الموضوع، تردد ثم قال وهو ينظر إلى الجبل "سيلطف بنا الله". نظر الشيخ أحمد أيضاً إلى الجبل. قال الضيف "اللحوج طيبون"، وردد الشيخ أحمد العبارة نفسها. ولكن الضيف أحس في تلك اللحظة بأمور رهيبة تضطرب بداخله، وللتو كان وجعٌ ما قد وصل إلى ظهره. حاول أن يفرد قامته، أنّ بعض الشيء. كأنّ الشيخ أحمد أدرك الجوهر، قال لضيفه وهو يستدير ناحيته: من طلب الجن ركبوه يا إبراهيم. قال إبراهيم: من طلب الجن ركبوه يا شيخ أحمد. ونزل الرجلان إلى الديوان. كان الآخرون قد وصلوا، وكان أولاد الشيخ أحمد وبعض الصبية من عائلة قمر قد

جهزوا جانباً من المائدة. لاحظ أحد الضيوف سحابة شاردة كانت داكنة بعض الشيء بخلاف الأخريات. ولم يكن لتلك الملاحظة من معنى.

تبسّم الشيخ أحمد في وجه ابنته غزلان التي كانت تقطع الديوان جيئة وذهاباً وهي تنادي "من يريد أن يشتري سفينة؟"

تمزع غزلان أوراق الكتب القديمة وتصنع منها سفناً. وإذا لم تجد تجّارا أو محاربين يشترون سفنها فإنها تلقي بها في الأمطار. أين تعلمت صناعة السفن؟ يقول والدها حين تعلمت القراءة. أما غزلان فلا تفهم السؤال، ولا تدري إن كانت تجيد القراءة.

مرّ النهار، ذهبت سحبٌ وجاءت أخرى، وهوت الشمس تجاه البحر وكادت تلامس حافته. تلك هي الساعة السليمانية، ساعة التلامس الكوني المبجّلة. في الساعة السليمانية يهب اليمنيون على العالم من كل حدب وصوب، يبسطون نفوذهم عليه ويضعونه في قبضتهم. عند حلول الليل يلقون بما في أفواههم ويبسطون أكفهم ليعود العالم إلى أهله وذويه.

تحدث الضيوف في أمور شتى، وسأل أحدهم الشيخ أحمد:

يا شيخ أحمد، في أي سماء توجد البحار؟

قال الشيخ أحمد:

لماذا لا تسأل ذا القرنين؟

قال الرجل:

"هو من طرح علينا هذا السؤال. قلنا له في السماء السادسة لأن الله يقول وكان عرشه على الماء، وعرش الله في السماء السابعة"

"وماذا قال لكم ذو القرنين" سأل الشيخ أحمد.

"لم يقل شيئاً، طرح سؤالاً آخر. ذو القرنين يستاء إذا عرفنا الجواب. ولكن ما قولك أنت؟"

قال الشيخ أحمد:

"كل شيء يعوم في الماء حتى السماوات. وجعلنا من الماء كل شيء حي. حتى السماء ستموت إذا حرمت من الماء مثلها مثل الطيور. لذلك فإن السؤال من أساسه باطل".

ثم أعطى الشيخ أحمد الإشارة وارتفع السماع عالياً. غنى الرجل الذي كان يجلس في ركن الديوان بعمامة بيضاء ولحية مبعثرة:

"صلاة الله على من .. قلبه بالنور مشروح

المصطفى محمّد ..حبيب القلب والروح".

كانوا يرددون خلفه، وكان صوت أولاد الشيخ أحمد أعلى من سائر الأصوات، أشار الرجل بيده فاستجابوا له. أنهى المتصوف ذو اللحية المشتتة الأنشودة في المنتصف، ثم نظر إلى الشيخ أحمد وقال منشداً ومترنّما:

"يا سعد كرّر لنا ذكر الحبيب لقد

شنّفتَ أسماعنا يا منشد الفقرا"

وراحوا ينشدون جميعاً تلك الأغنية التي يحفظونها غارقين في ساعتهم السليمانية الرائعة والمذهلة، القلوب تقفز إلى النوافذ والقات يتطاير مع الجن. دارت القصيدة على الشفاه وأعيدت مراراً، وهي قصيدة يجد المرء فيها عزاءه على الدوام، وتصلح لكل شيء من نكاح الدابة إلى دفن الموتى. فإبراهيم الذي زعم قبل الغداء أن الفتاة السمراء تشفي المرء من آلام الظهر تخايلت له الآن تلك السمراء عارية ما إن انزلق لسانه إلى الجزء الذي يقول"مالي لركب الحمى مالت معاطبُه". ما الذي يمكن أن يعنيه هذا الكلام؟ إبراهيم لا يعرف ولكن الفتاة على أية حال حلقت عارية واختفت.

ثم نهضوا جميعاً، توزعوا على صفّين متقابلين، وحضرت روح السيد النبي وتمشّت بينهم، وراحوا يبتهلون وقد أغمضوا عيونهم خشية أن تقع على النور. أول الأمر رددوا اسم الله مراراً ومراراً إلى أن سقط أحدهم أرضاً. بينهم ركض المجذوب، كان يضرب نفسه بالجنبية، خيّل إليهم في ساعتهم تلك أنها بلغت أحشاءه. وكان المنشد الكبير بينهم يدنو من المجذوب، يخرج من فمه قليلاً من القات ويمسح على جروحه فتبرأ. واصلوا الابتهال باسم الله الكامل، ثم باسمه المنقوص. حذفوا من لفظ الجلالة حرفاً ورددوا لله عشرات المرات، ثم تخلوا عن الحرف الثاني وصارت الكلمة له، رددوها مراراً ومراراً: له له له له. وربما رددتها معهم روح السيد النبي أيضاً. ثم صاروا إلى الختام، وتخلوا عن حرف اللام لتصير الكلمة مجرد حرف واحد. هو هو هو هو، تقافز بعض الأطفال من الخارج إلى وسط الديوان ووجدوا لهم فرجات صغيرة بين أقدام الرجال وغنّوا هو هو هو هو إلى أن تشبّعت روح النبي بكل ذلك الحب وسكرت كما تشاء ثم عادت إلى مطرحها، أو إلى القصيدة. وقبل أن يجلسوا عادوا جميعاً إلى مطلع القصيدة يغنون ويترنحون، رافعين سواعدهم إلى الأعلى والأسفل إلى أن قالت القصيدة "وسامح الكل فيما قد مضى وجرى". هناك فتح كل رجل عينيه ونظر إلى الرجل الذي يقف قبالته وغفر له خطاياه كلها.

ثم جلسوا منهكين وسكارى كيوم ولدتهم أمهاتهم.

شعر الشيخ أحمد بالرضا لأول مرة منذ زمن كأنما نشط من عقال. بعد برهة من الصمت شاء الرجل أن يشرح لضيوفه السبب الذي دفعه لإقامة السماع في داره، قال إن البرق ضرب ضاحة الجن في الأيام الماضية، وهي صخرة كبيرة تجلس على أكمة وتطل على الوادي من جهة الغروب. على مر الأيام يصاب الناس بالجن ثم يأتي العارفون ويستخرجون أولئك الملاعين من الأجساد بالآيات الزاجرات وبالأوراد. يخرج الجن من أصابع الرجلين أو مع ريح السبيلين ويعودون إلى مطرحهم الملعون في ضاحة الجن. اقترح أحد الحاضرين أن تطلى الضاحة بالسمن البلدي حتى لا يضربها البرق مرّة أخرى ويحرر الجن الملاعين.

قال الشيخ أحمد، وكانت نفسه قد هدأت بعض الشيء أو إلى حد كبير:

"جميل ما فعلناه هذه اليوم، لقد أعدناهم مرّة أخرى إلى الضاحة، وعلينا أن نفكّر ملياً بطريقة تمنع خروجهم وانتشارهم. السمن البلدي فكرة جيدة ولكنها لن تصد كل البروق. على كل حال فالسماء الآن تعج بالسحب البيضاء، وهي سحب لا تمطر ولا تبرق. ما يعني أن لدينا وقت للتفكير. كأن الجن تتصايح الآن في الطرقات وبين الضياح".

قال الرجل ذو اللحية المبعثرة:

"سماع كل شهر هنا في دار الشيخ أحمد، السماع كفيل بحراسة الوادي من كل شيء"

تصايحوا جميعاً بالموافقة.

في الليل، في تلك الليلة، أراد الشيخ أحمد أن يحدق في قطرته ليرى. ولكن ظهره آلمه بمجرد أن انحنى قليلاً. تذكر ما قاله ضيفه إبراهيم عن آلام الظهر، نهضت بداخله أشياء مثل المرح والرغبة، فلم تحصل روحه على أنْسٍ كمثل الذي حصلت عليه ذلك النهار. تصاعدت الوخزات على فقراته حتى بلغت عنقه، وقال لنفسه بطريقة أو أخرى لا بأس من الدواء بعد الغفران، ونسي شأن القطرة.

أما امرأته فكانت شديدة البياض وسيغير اسمها مع السنوات للمرة الثانية. وسيترك ظهره للآم، ولن يجرؤ قط على تناول ذلك الدواء الأسمر الشهي.

خزينة الأسرار

تردد الشيخ أحمد في شأن السفر إلى الجبل. غير أن مدافع الإنجليز شرعت تطلق القذائف داخل رأسه. كان الدخان يخرج من عينيه. ولمّا سمعت زوجته أصوات المدافع داخل جمجته وأيقنت أنها لن تتوقف نصحته بالجبل. كانت حزينة، كانت غاية في الحزن، ولكنها خافت على رأس بعلها. كما أنها لم تعد تحتمل رائحة الدخان الإنجليزي في كلامه.

كانت الطفلة غزلان عاكفة على صناعة السفن عندما أفاق الشيخ من نومه. رآها في ركن الديوان المطل على الحظيرة، كانت منشغلة والشمس في قدميها، وبالقرب منها بقايا كتاب ممزق كان اسمه "خزينة الأسرار". لو أن والدها قرأ عنوان الكتاب، في الساعة تلك، لربما قفز من النافذة وأهلك نفسه. أطال النظر إلى ابنته، إلى قدميها وسفنها. كانت منشغلة، واصل التحديق ورآها ترسم بالفحم خطوطاً سوداء على جانب سفينة كبيرة. قالت له، دون أن يسألها: هذه سفينة إنجليزية، وتلك مدافعها.

لو أن قرآناً نزل في ذلك النهار لما زادت كلماته عن ثلاث:

رفقاً بالشيخ أحمد.

قال له رجل قبل سنوات "اطحنْ لي هذه الحبوب وسأعطيك هذا الكتاب"، فطحن له وأخذ كتابه. بعد برهة أوقف الشيخ أحمد طاحونته وخرج، جلس إلى الظل، فتح الكتاب فوقعت عينه على هذه الجملة "وقد أرسل الله إلى الناس 125 ألف نبي". طوى الكتاب وذهب للتبول. وعندما وقف تحت الأشجار، بالقرب من الغلّة، لم تنزل قطرة واحدة. هاله ما قرأه، وفهم شيئاً جديداً عن الحرب التي لا تكف عن المجيء. كلما جاءت الحرب أرسل الله النبيين ليوقفوها، فهم الشيخ أحمد. ولكنه سيفهم فيما بعد النقيض من ذلك: كلما توقفت الحرب أرسل الله النبيين ليشعلوها. وفي الحالين، من أجل الفكرة ونقيضها، كان يجد قرآنا يسانده وأحاديث شريفة تستجيب له، وقصصاً من كتب الخلفاء وأشعاراً. أحمد لا يستطيع التبول، والأفكار تعبث به. ليست الأفكار وحسب. يضغط على بطنه، تزحف قطرات بوله تحت جلده وتصعد حتى صدره. فرّ أحمد من نفسه، عاد راكضاً إلى طاحونته، كانت امرأتان تنتظران. ما إن سحب خيط الطاحونة حتى تطاير البول في سرواله فأحس بالرضا وفتح فمه وحيّا المرأتين لأول مرة.

عثرت الطفلة غزلان على ذلك الكتاب القديم صباح هذا اليوم، وجدت فيه منجماً لصناعة سفنها. ناداها والدها فتمهّلت ريثما تتأكد أن مقدمة السفينة ستقاوم الرياح. جاءت إليه وبيدها واحدة منها. سألها عن نوعها فقالت "هذه سفينة رومية". وهي

تلاعب لحيته ترجّته أن يشتريها فقال "أنا لا أشتري سوى سفن المسلمين ". قفزت الطفلة عالياً وركضت. راحت لتصنع له سفينة مسلمة. قام الرجل، تجوّل في ديوانه، نظر إلى الوادي، اللحوج لا يزالون في أطراف الحقول يحدّقون في الغلة. سأل طفلته وهو ينظر إلى الجبل "كيف تفرّقين بين سفن المسلمين والسفن الرومية؟". أجابته الطفلة وهي تعض أصبعها "سفن المسلمين أصغر وأسرع". رآه أحد الرجال، وكان ماراً أمام بيته، فألقى عليه التحية. وجاءت زوجته بقهوة الزنجبيل. ليلة البارحة، حين استلقى على فراشه، فكّر بالذهاب للتلصص على الحرب في سهول تهامة أو قريباً من البحر. فاجأ زوجته "سأسافر لبضعة أيام، سأذهب إلى المخا". هزّت قمر رأسها وتمنت له السلامة، خشيت أن تسأله "ألم تعُد تخاف من الحرب؟" وخشيت من ردّة فعله. لكنها دارت حول السؤال، سيغضب إن لم تسأله عن السبب، وسيغضب أكثر إن أدركته. قمر امرأة لا تعرف الشعر ولكنها تعرف الوهاد والخرابات التي تعيش داخل هذا الرجل الذي ما إن يستفيق من نومه حتى يضع عمامته على رأسه.

"وماذا عن الجبل؟" سألته.

"سنسافر إلى الجبل بعد رمضان. علينا أن نشتري بيتاً هُناك."

"بيت خالتي واسع، ليس فيه من أحد سواها مع طفلتها وقططها"

"لن نسكن في بيت أحد يا مرَة".

لاحظت قمر أن فنجانه قد فرغ فصبت له مزيداً من القهوة. كانت قد نقشت كفيها البارحة بمساعدة أمها عندما كان المتصوفون يملؤون الدار. لاحظ الشيخ أحمد النقش على الكفين وغمغم بكلمات مديح لفرط دهشتها لم تفهمها. لم يحدث قط أن رأى جمالها، كان يمتدح إخلاصها وأصلها. وللتو، في تلك اللحظة العصيبة، تذكرت أيضاً أنه لا يضاجعها سوى في الظلام وأنه لا يعرف عن جسدها الشيء الكثير. اكتسى وجهها بالحمرة القاسية، ظنّ أحمد أن مديحه هو السبب فأضاف بعض الكلمات. أراد أن يناديها بأعلى صوته لتخبئه من مدافع الإنجليز. غير أن زوجته لم تلتقط شيئاً. سرحت بعيداً جداً. أرادت أن تُرى عارية ولو مرّة في العُمر. اللعنة، لماذا تفكر الآن بهذه الطريقة، لماذا والرجل ذاهب لمعاينة الحرب في سهول تهامة؟ ولماذا لم يخطر قط في بالها أن يراها عارية ولو مرة واحدة؟ ماذا قالت لها أمها البارحة؟ نسيتْ أمر سفره، ونسيت أسئلتها، تركته يذهب، لا تريد أن تعرف شيئاً. وقبل أن تقوم نظرت في عينيه فرأت نفسها عارية فتمتمت يا ألله، ونظر هو إلى شفتيها فرأى المدافع والسفن وجند الله.

النبي طه

من الغداة خرج الشيخ أحمد يريد تهامة. يعرف تلك السبل جيداً، وقد سبق له مراراً أن خرج إليها لمعاينة الحروب. تقع تهامة دائماً في طريق الشمس، وما عليه سوى أن يتبع الأثر. بعد كل رحلة يضربها إلى تهامة كان يعود محمّلاً بالقصص، بعض تلك القصص تقشعر لها الأبدان. وكان يسأل نفسه وهو يدخل الوادي متألما وتائهاً: لمن أحمل كل هذه القصص؟ يتذكر الرجل الذي نهره قبل سنوات بالقرب من السوق وقال له "ألم تر السمك قط في تهامة؟ قل لنا شيئاً عن السمك أو النسوان". كان الشيخ أحمد يحدثهم عن الجثث التي نقلها فوق جمله، الجثث التي يجدها حين يعجز كل الناس، وعن ثناء المتحاربين على صنيع الشيخ أحمد.

ثم صار المتحاربون ينتظرون وصوله ويزودونه بالأرقام، فقط بالأرقام. وكان يعبر بين الأطراف جيئة وذهاباً يحمل الجثث الطرية على ظهر جمله، وأحياناً على ظهره. أما الجثث الناشفة فكان يدعها في مكانها ويترك إشارات إليها. سمحوا له بدفن العظام التي ليس عليها لحم، واستأذنهم في أن يصلي عليها فترددوا قليلاً، تردد الخصوم جميعهم فهم لا يعرفون لمن العظام، لهم أم للأعداء. في آخر الأمر أخذوا منه عهداً أن لا يخلط العظام إن أراد أن يصلي عليها.

وفي مرّة قال لهم إن الرجال الذين لقوا حتفهم أثناء اكتمال القمر لم تتحلل جثثهم، ووجد أنه قد افترى على الله ولم يعُد لمثل تلك المبالغات. فضلاً عن أن حروب تهامة مثل حروب الجبل لا تجري عندما يبلغ وجه الله تمامه. هو القادم من جبل يضع أهله السلاح عند اكتمال القمر لكي لا يراهم الله. اليمنيون، من الجبل والبحر، يستغفلون الله ولا يخرجون إلى الحرب إلا حين يصبح القمر كالعرجون القديم.

كان حريصاً كل الحرص على تأكيد أن المتحاربين كانوا ينادونه بالشيخ، وكان يدس لقبه الجديد داخل كل حكاية. ومع الزمن تعلم من الحاج زُط طريقته في الحكاية، أن يجعل لها نهايتين واحدة مفتوحة وأخرى مفاجئة. وذات مرّة، ويمكننا أن نقول كان يا ما كان، قال لهم إنه صعد على شجرة نخيل وجعل يعوي في الليل، مرّة مثل ذئب ومرّة مثل ضبع إلى أن جاء رجلان أو ثلاثة فأعطاهم جثّة صاحبهم، وكانت جثة ناشفة. ولفرط سعادتهم قبلوا رأسه. كانت تلك الحكاية مخيفة، فقد غرق في ذكر تفاصيلها، وقال في نهايتها "وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجّمِ". تجمدت الدماء في شفاه الرجال الخمسة الذين كانوا يستمعون إليه أمام الطاحونة، وكان صباحاً ولم تكن الشمس قد بلغت الوادي، حتى إن أحدهم قال له ببطء كأنما ينزع الكلمات من البئر: أحسن الله صنيعك يا شيخ أحمد. ثم قال رجل أو رجلان

آخران مثل ذلك، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي سمع فيها أحمد اسمه مسبوقاً بالشيخ في ذلك الوادي. كان ذلك قبل أن يتزوج قمراً.

ولمّا قام أحمد من مكانه في تلك الساعة كان قد أصبح شيخاً.

وسمع، وهو ينصرف، رجلاً يقول للآخر وقد لاحت الشمس أخيراً:

"الشمس كسولة على غير عادتها كأنها تشرق غصباً عنها"

فقال له صاحبه:

"هكذا هي في الشتاء، كسولة ولا تشرق من قلبها. لأن قمر الشتاء المأبون لا يقوم بواجبه"

وضحك الرجلان، وضحكت معهما الأشجار ، وهزّ أحمد رأسه بوقار، وكانت أول مرّة هز فيها أحمد رأسه كشيخ.

نسي الناس في الوادي السبب الذي جعله، وهو وافد وغريب، يصير شيخاً واعتقدوا أنها الطاحونة. حاول ذو القرنين مراراً تذكير الناس بأصل الحكاية، كان يقول لهم إنها الجثث من جعلته شيخاً. كان يقول لهم إن الشيخ يولد شيخاً وأن الطواحين والأشعار لا تصنع من الرجل شيخاً "وإلا لكنتُ قد أصبحت شيخاً منذ زمن". ولمّا اعترض أحد

الرجال على كلامه وقال له "لكنك لا تملك طاحونة ولا تكتب الأشعار" سخر ذو القرنين من كلامه، سخر بشده وتلفّت إلى وجوه الآخرين ليرى ما إذا كانوا يشاركونه السخرية ولكنه في نهاية المطاف لم يجد كلاماً يقوله. فبرغم وجاهة كلام ذي القرنين، رغم الصدق الذي يلوح دائماً على شفتيه، إلا أن الحقيقة بقيت ماثلة كما هي، فلم يكن له من طاحونة ولا قصائد.

في الوادي، حيث ذو القرنين، يمكن للحقيقة التي يعرفها كل الناس أن تصبح مثيرة للسخرية إذا قيلت في الوقت الخطأ، وإذا استخدمت من قبل المساكين.

ما إن توغّل أحمد في أرض تهامة، وما كان له قط أن يدخلها إلا على جَمَله، حتى وافته رائحة الحرب، واستعاد ماضيه: إنها تشبه رائحة الأرامل. جعل، والشمس تضربه من كل مكان، يهز رأسه يمنة ويسرة ليسقط تلك الفكرة التي تئز في صدره. إنما أخرجُ إلى الحرب لأن رائحتها تشبه رائحة الأرملة. هل حملتُ تلك اللعنة من جبال الشمال، هل أدركها جدّي في عيني قبل أن أدركها أنا في قلبي؟ واستقر به الحال، وقد هوت الشمس صوب الماء، إلى القول إنه سيؤلف كتاباً عن الحرب، وأن ذلك هو السبب الذي يدفعه لملاقاتها في كل مرة. أجلسَ جَمله بالقرب من قرية على البحر، وفكّر ملياً بعنوان ذلك الكتاب الذي لن يكتبه قط.

انقضى اسبوعان وعاد الرجل وقد خسر سِنّاً.

مر بالقرب من مقهى زُط ودخله هذه المرة كمسافر، وأحس بمهابة دخوله وبعظمة كونه مسافراً وشيخاً. كان زُط قد عاد للتو من صلاة العصر من المسجد القريب وجلس. وما إن رآه حتى هبّ واقفاً وأسبغ عليه الكثير من الأوصاف وهو يضحك بصوت عال. يعرف زُط كل ما سيقال، ولحسن حظ الشيخ أحمد أن الوادي نسي قصص الحروب التي كان يعود بها. الشيخ أحمد لم يعُد يحدثهم عن ذلك منذ زمن، ولكنه واصل البحث عن الحرب ومعاينتها وحمل الجثث، ومغالطة زوجته بأنه ذاهب ليكتب الكتاب عن الحرب. ولمّا سألته قمر عن اسم الكتاب قال إنه سيسميه النفس اللوامة في حروب تهامة، لكنه وجد العنوان غاية في السخف فابتكر عنواناً آخر وأسرّ به إلى الحاج زُط ولكن الأخير انفجر ضاحكاً، فقرر الشيخ أحمد أن ينسى أمر العنوان.

كان يعلم جيّداً أنه قادر على خداع كل الناس عدا زوجته قمر. شيء ما في السر جرى بينهما، هو يكذب وهي تصدق، وكلاهما يعرف أصل الحكاية. كان لا بد أن تمشي الأمور على هذا النحو، فالشيخ أحمد كان بحاجة ماسة إلى الكذب، وكانت قمر بحاجة ماسة إلى رؤية زوجها وقد هدأت روحه. لطالما جلست إلى جواره وهو مستغرق في

نومه، كان العالم يضطرب في رأسه وهي تحدّق فيه وترى كل شيء. لقد رأت ماضيه كلّه، وتمنّت في واحدة من الليالي الباردة لو أنها كانت أرملة.

"رأيتَ الحرب؟" سأله الشيخ زُط بحماس. كان زُط متحمّساً بالفعل، فهو يعرف أن صديقه توقف منذ زمن عن مثل تلك الرحلات.

"رأيتها ولا جديد فيها. حرب، ماذا تريد أن تعرف عن حرب هي مثل أخواتها" قال الشيخ أحمد.

"شارك فيها الجبليّون؟" تساءل الحاج زُط.

"كانوا رجالاً سُمراً ولا أدري من أي بلاد جاؤوا. السّمر لا يأتون من الجبال"

"وعلامَ تقاتلوا هذه المرة؟" سأله الحاج زُط.

"علامَ تقاتلوا؟" ردد الشيخ أحمد بشرود، ثم قام من مكانه ونظر إلى الوادي، وعاد وقد وضع له الحاج زُط فنجاناً من القهوة على مقعده. راح يغمغم، وهو يحاول مرتجفاً أن يضع حافة الفنجان بين شفتيه:

"مثل كل مرّة".

ولكن الشيخ زُط كان قد فقد اهتمامه بالموضوع.

كان الشيخ أحمد الحرب مرّة في العام والعامين، وأحياناً أكثر من ذلك. هذا ما كان يقوله للناس في الوادي. ثم أصبح يرى الثورات. الحقيقة أنه لم يأت على ذكر الثورات سوى نادراً، فقد لاحظ شيئاً محيراً. كلما توغل في المدن قيل له إنها ليست حرب ولكنها ثورة، وإذا ذهب إلى البحر يرى فقط الحروب. أول الأمر كان يقول للناس إنه سيخرج ليرى الحرب ويعود إليهم بالخبر اليقين. كانوا يصدقونه. ثم خسر اهتمامهم بقصصه. صاروا بعد ذلك يرتابون في تلك القصص، وكاد أن يصبح مجنون الوديان لولا أن تدارك نفسه وأخفى الأمر عنهم إلى الأبد. ولأنه يحب القصص، ولا بد له أن يحكي فهو يملك بئراً وطاحونة وصوته عال، فقد وجد في كتاب المستطرف حلّاً. إلى أن أرسل إليه المؤذن وبعض الرجال المبجّلين في الوادي يطلبون منه أن يقص على زبائنه قصصاً ليس فيها نساء. وعندما احتج قائلاً إن النساء في كل قصة اقترحوا عليه أن يضع الجن أو المردان في مطارح النساء. وكانت تلك فكرة جهنمية دفعته إلى الهرب إلى كتُب السيرة. وحين توغل في الحديث عن حروب النبي ومغازيه وجد ذاته فيما يرويه. وبسبب حماسه المفرط وهو يروي كيف ألقى الرجل بالتمرات ثم قفز إلى الخندق، وكيف أمسك رجل أعرج بساق الحصان وجعل عاليه سافله، وعن المصاب الذي ضرب الجيوش بسيقانه المبتورة ظن الذين استمعوا إليه أنه كان ذلك الرجل في كل الحالات. وربما قال الشيخ أحمد في قصصه "قفزتُ وأمسكتُ وكنتُ" دون أن

ينتبه. كانت قصة الرجل الذي هزم الجيوش بسيقانه المبتورة من أعظم القصص التي دخلت الوادي في القرون الأخيرة إلى أن سمعوا عن الثورة.

ثم أصبح يذهب إلى مقهى زُط ويقص على المسافرين حتى المساء. صار معروفاً ومهاباً، وبعضهم أطلق عليه لقب مفتي الوادي، ولكنه وجد اللقب غاية في السخف.

لم تثنه قصص السيرة عن الحروب التي يجدها من وقت لآخر، ولا يجدها سواه. ثم، كما قلنا، توقف عن الحديث إلى كل الناس عن تلك الحروب واختار لها صديقه زُط، وهذا الرجل طلب منه أن لا يقصها سوى في المقهى للمسافرين. سمع المسافرون عن حروب الشيخ أحمد ولم يحدث قط أن شكك أحدٌ منهم بحقيقة ما يسمعه. غير أن ما هو أكثر غرابة هو أننا لم نسمع قط عن مسافر عاد إلى قريته أو ذهب إلى البحر وهو يتذكر شيئاً عن حروب أحمد. وهكذا فإن قصصه لم تغادر الوادي قط، ومع الأيام نُسيت في الوادي.

"هذا الوادي محروس. محروس بجِنّه وإنسه، محروس بأشجار العَنْب، محروس بدعسة الخضر. هذا وادي الخضر، هو من أوجده، وهو من جاء بالبشر إليه من بقاع شتّى، وما فعل ذلك إلا لأنه يعرف أن الحروب لن تجد طريقها إليه" قال له الحاج زُط في يوم من الأيام. كان بالقرب منهما، في ذلك المساء، مسافران مجهدان يتحدثان عن

ثور نطح صاحبه من ارتفاع ست قامات ولكن الرجل عاش. فكّر الشيخ أحمد بكلام رفيقه مليّاً وسأل نفسه بصراحة منقطعة النظير ما إذا كان بالفعل يرى حروباً.

ها هو يعود من حرب جديدة، وصديقه يفقد حماسه للقصة في لمح البصر. قام الشيخ، كما يقوم دائماً، ومضى. وتمنى لو أن زوجته تعود الليلة كما كانت قبل عشرين عاماً. وعد نفسه بأن يفعل بها الأفاعيل إن هي صغرت فجأة. لا تزال عفيفة ورطبة مثل تلك الأيام وربما أقل وربما أكثر. ولكن لماذا سيفعل الأفاعيل، لتكن الأفاعيل من نصيب امرأة أخرى لا تصنع له غداءه. مضى بين الحقول، كانت قمر تقفز وتغيب، حاول التشاغل عنها بامرأة أخرى ولم يجد الكثير من النسوة في رأسه. أي امرأة في تلك الساعات كانت ستكون رائعة ومذهلة فهو يريد أن يهرب، أن يهبط إلى قاع رأسه ويجد امرأة ليقص عليها أشياء لا علاقة لها بالحرب. تذكر أرملة من ماضيه ولكنه دفعها بعيداً عن رأسه فقد خشي أن يشم رائحة زوجها القتيل. عصر رأسه كثيراً وكاد أن يجد امرأة، كاد أن يفعل بها الأفاعيل. إلى أن اقترب من المقبرة ثم حاد عنها بعيداً. الآن، والليل يفترش الوادي مثل سرب من الإبل، يسأل نفسه بصراحة منقطعة النظير ما إذا كان قد رأى حرباً في تهامة. ليس الآن وحسب، بل في سائر الأيام. وما إذا كانت هناك من حروب. كادت هذه الأفكار أن تفتك به لولا أن مرّ ابن المؤذن بالقرب منه وكان يسوق أمامه بهمة بضّة كانت تحرك ذيلها يمنة ويسرة. لاحظ الشيخ أحمد

أن فرجها نظيف على غير عادة البهائم في الوادي، ولكن أحمد رأى ما هو أبعد من نظافة فرج البهمة. ألقى أحد الرجلين على الآخر السلام وتمنى أحمد لو أنه كان مؤذنا ينجب مثل هؤلاء الشياطين الذين يسوقون البهائم في الليل وينظفون فروجهن. دهسته تلك الأمنية، دهسته بقسوة فلا يمكن لرجل عائد من حرب أن يتمنى أن لو أنه كان المؤذن، ليس مؤذن هذا الوادي على الأقل.

كان وادي الخضر في الماضي السحيق مجرد طريق للسيل، وكانت السيول تهبّ إليه من الجبلين الشرقي والغربي. جاء الخضر قادماً من الأعلى، ولكن أين هو ذلك الأعلى؟ هبط بمحاذاة السيل إلى أن افترقا. كان الخضر أول من سكن ذلك الوادي، ثم مضى في كل اليمن يبحث عن التائهين، يلتقطهم عند حلول الليل ويضعهم على مدخل الوادي فيضربهم النعاس ليلة أو ليلتين وعندما يفيقون يصبحون وكأنهم بلا تاريخ. مات أقدم التائهين ونسي الأحفاد القصة، قصة التكوين تلك. ثم مع الأيام حين استقرت الحياة غيّروا اسم واديهم إلى وادي السيل وأبقوا على دعسة الخضر. لا يريد أحد أن يعرف هذه القصة، فهي لم تعد حقيقة كما كانت في السابق. ولم يعُد الخضر يجيئ بالتائهين إلا ما ندر. وهؤلاء، كما حدث مع الحاج زُط ومع ذي القرنين، سيعيشون على الهامش ولن يستطيعوا اختراق المجتمع، ذلك أنهم مقطوعون من شجرة. حاول ذو القرنين، وقد استطاع بجده واجتهاده لملمة قصة الوادي من الأفواه

التي كانت لا تزال تتذكر، حاول الدخول في الناس وأن يعثر له على زوجة ولكنه لم يفلح. سمع عن الشاعر الذي عاش في أعالي الوادي وكان يؤرخ للموت والميلاد بالشعر، مات وليس له زوجة ولا ولد. ذلك أن سكان الوادي نظروا إلى شجرته المقطوعة ولم ينظروا إلى أشجار ماضيهم.

كان القمر غائباً في الليلة التي فكّر فيها ذو القرنين بمضاجعة المواشي لأول مرة، وكان في مثل سن أحمد آنذاك. حاول أحمد ثنيه، وكانا ذاهبين للنوم في الطاحونة التي بنيت للتو. قال له أحمد إن حرباً جديدة ستقع وستكون هناك أرامل. وحدثه عن طعم الأرملة، وكيف أن رحمها الغاضب بمقدوره أن يبتلع أشياء لا تخطر على البال. قال له أن رحم الأرملة يركض داخل جسدها مثل المجنون، ولو غفلت عنه سيقفز إلى القرى وينهش الكلاب والقطط. أخبره عن أرحام الأرامل، قال إنها أعظم ما سيبقى على هذه الأرض عندما يضع كل شيء أوزاره.

"حتى قمر الخريف" قال أحمد.

"ما هو قمر الخريف؟ هو رحم أرملة عاشت في الماضي، امرأة قتل فرعون زوجها". أضاف أحمد وأفزع صاحبه.

تماسك الرجل الخائف، ثم زمجر بنفاد صبر:

"إذا لم يخرج مائي الليلة فسينفجر بطني ويغرق الوادي يا أحمد".

أراد أحمد أن يضحك في تلك الساعة ولكنه تراجع، فما من شيء مسلٍّ في مسألة الغرق. ثم نهره وقال إن عرش الرحمن يقفز من مكانه إن وضع الرجل أيره في فرج الحيوان.ولكن ذا القرنين رأى الأمر مثيراً أكثر من أي وقت مضى، وتخيّل عروشاً تتقافز بين السماء والأرض، والحيوانات تركض وتشتكي.

بقي الرجلان على حافة الصداقة، وسلكا طريقين مختلفين. توغل أحمد في الناس وصار منهم، اشترى أراضيهم ومواشيهم، ثم صار يغيثهم بالحبوب واللبن حين تبسط السحب البيضاء يدها على سماء الوادي لأشهر. ويفتي لهم ويقص عليهم القصص في مواسم الحصاد وشهور الشمس. أما ذو القرنين فبنى له كوخاً وحظيرة صغيرة لجمله، وصار يخدم الناس من وقت لآخر، وتعلّم. أخذ علومه من كتب قديمة ومن الأفواه، ومن الترحال. بقي غريباً، وكلما صار أحمد رجلاً من أهل الوادي نأى عنه صديقه درجة. إلى أن اكتشف ذو القرنين الأسئلة، وصار يلقيها يمنة ويسرة ويعجز الخلائق. لقد صنع نصره الخاص، وكان يؤوب إلى كوخه مستريحاً إلى نفسه راضياً عن وضعه الجديد، فقد أصبح قادراً على دحرهم جميعاً عدا الشيخ أحمد. وكلما سمع رجلاً يردد بيتين أو ثلاثة من شعر أحمد استمع إليه ملياً ثم مضى كأنه لم يسمع

شيئاً. وفي الغد يذهب إلى دعسة الخضر محمّلا بالأسئلة. وجد له مع الأيام موضعاً وصارت له هيئة مبجلة، رغم أنه بقي يمشي أمام جمله طيلة حياته، ولن يصير قط شيخاً. بقي ذو القرنين على الحافة، عجزت أسئلته العظيمة عن إدخاله إلى وسط الناس أو منحه امرأة. وفكّر بخصي نفسه، فقد شغله ذلك العضو كثيراً وفضحه في شبابه. لكنه تمهّل في قراره وخصى جمله أولاً. ولما لاحظ أن جمله صار رخواً وجباناً عدل عن قراره وعاش مع ذلك الشيء ووجد له من وقت لآخر حفراً وثقوباً من أنواع شتّى.

إلى أن جاء ذلك اليوم من شهر ربيع حين تناقل الناس قصيدة قالها الشيخ أحمد في مديح النبي، وكان أحمد قد ذكر اسم طه في القصيدة أكثر من عشر مرات حتى ظن الناس أنه يقصد شيخ القرية وكبيرها، وكان اسمه طه. وكان للشيخ طه دار كبيرة في أعلى الوادي، وقد دعا أحمد في الجمعة التالية للغداء في منزله وطلب منه أن يعيد القصيدة على الحاضرين فأعادها مراراً وتكراراً.

لما سمع ذو القرنين القصيدة، وكان أغلب الناس قد حفظوا منها البيت والبيتين، خطر في باله وفي يجلس في الدكان أن يطرح سؤالاً: كم عدد الأنبياء الذين كان اسمهم طه؟ لم يحصل على جواب، وتسامع الناس بالسؤال. التقاه الشيخ طه، وكان طه

يتمشى بين الحقول وحوله رجاله، فاستوقفه وطلب منه أن يجيب عن السؤال الذي ألقى به في وجوه الناس قبل أيام. وقف ذو القرنين ومن خلفه جمله ورد على سؤال الشيخ بأدب جم قائلاً:

"اثنان من الأنبياء حملا اسم طه. الأول كان هو النبي محمد"

وتردّد ذو القرنين في الإفصاح عن اسم النبي الآخر غير أن الشيخ طه ابتسم ابتسامة لم يعرفها أهل الوادي منذ القدم، ومضى في طريقه وخلفه رجال أدركوا للتو من هو طه الثاني.

منذ ذلك النهار صار ذو القرنين رجلاً مهاباً يحبّه الشيخ طه وآل الشيخ طه وبعض النسوة في دار الشيخ طه والدور المجاورة لدار الشيخ طه. بيد أن كل تلك المحبّة لن تمنحه قط أنثى بلا فرو.

استعاد الوادي، كل الوادي، تاريخ الشيخ طه. وقيل إنه كان ولداً شقياً لأب صالح، وأنه ترك الوادي في صباه لأنه أحب ابنة كبير الشيوخ ولم يعرفوا له طريقاً. قيل إنه كان يمشي بين المنازل والغيطان كأنه الخضر، وكان الرعيان يدركون، بما لأرواحهم من شفافية، أنه مرّ ليلة أمس. ويومَ وقف على النهر وسأل قيل له إن ابنة كبير الشيوخ ستزف إلى ابن عمّها، فصرخ صرخة جعلت العروس، وكان اسمها مريم، تطير

من الشبّاك. أخذتها الرياح السعيدة إلى النهر، وطارت معها الجن والملائكة ونساء الروم. منذ ذلك اليوم أصبح طه شيخ الشيوخ، وربما أكثر من ذلك بكثير. ولا تزال مريم تطير مع الملائكة ونساء الروم، تجمع حبّات المطر من السحب الكسولة، وتزاوج بين الأشجار. وفي ليالي الأعياد تسيل روح مريم، التي ماتت منذ زمن بالحمى، تسيل في مياه النهر وتتدفق معه حتى يبلغه منتهاه. ولا يعلم منتهى النهر سوى الله والجن. إنه لمن المحزن أن الشيخ طه - الذي أحب مريم كأنها شجرة وأحبته كأنه ريح - لم يفكّر قط بمعرفة أين ينتهي النهر. وبرغم أن هذه القصة باتت معروفة لكل الناس في الوادي إلا أن امرأة وحيدة فقط، امرأة جعداء وفطساء وسمراء، تجرأت وقالت إن الشيخ طه لم يكن يستحق كل ذلك الحب. أما باقي النسوة فكنّ يقلن إن تلك المرأة التي تطير مع الجن لم تكن قط جديرة بالشيخ طه، الشيخ الذي لفرط كرمه كان يفرش الأرض للغمامة. أما هو فكان يجلس إلى نفسه في الليالي حالكة السواد ويستمع إلى ذلك الصوت الذي لا يزال يهوي في روحه. تقول له مريم "أنت شجرة الخلد" ويقول لها "أنت المُلْك الذي لا يفنى". يا لها من أيام لو عادت لما غفل طه عن مريم لحظة واحدة، ولمات معها بالحمى.

قمرٌ وأرملة

تمشت السيدة أثمار بنت محمد بن علي بن قاسم مع ضيفها في دارها الكبيرة المطلّة على الغروب، ولم تسمع شيئاً غريبا. كانت داراً كبيرة نوافذها ضيقة مثل عيون الثعابين. ظن الشيخ أحمد، وهو يعاين تلك النوافذ، أن الإنسان الأول جعلها ضيقة حتى يرى الحرب ولا تراه. السيدة أثمار بنت محمد تعيش وحيدة بصحبة ابنتها، وقطط كثيرة تذهب وتجيء. وُجد زوجها ميتاً في كِنانِه في الجبل قبل ثلاثة أعوام. حدث ذلك في الشتاء، وكانت الليلة باردة أكثر من سائر الليالي أو مثل سائر الليالي. كان يقضي أغلب أيام الشتاء في ذلك الكنان ليحرس القات من اللصوص. لم تسمع أثمار بنت محمد صوت بندقية ولا برق، وكان القمر هادئاً كعادة قمر الجبل. صلّت صلاة الوتر ودعت الله، وكان زوجها سليماً مثل كل الليالي، وبدا أن كل شيء سيمضي كالعادة. وعندما انحنت أمامه لتلتقط له شيئاً صفعها في مؤخرتها وتوعّد تلك الأشياء فارتعشت من الخجل وتلاطمت على لسانها الكلمات. حتى إنها بعد خروج زوجها راحت تغلق النوافذ وتفتحها وهي لا تدري لماذا. وفكّرت، مجرد تفكير، أن تشرب مداعة وتضع رجلاً على رجل كما لو أن كل ذلك قد حدث بالفعل وأنها بحاجة إلى الاسترخاء. مات زوجها تلك الليلة ولم يجدووا على جثته من أذى، وما من شيء

غريب لاح في سماء القرية آنذاك. نذرت السيدة أثمار نفسها للجن الذين قتلوا زوجها لكنهم لم يأتوا قط، فتشاغلت عنهم بمتابعة الشمس والرياح. كادت تعتقد أنه ما من جن في الدنيا إلى أن رأت رجلاً يمشي ثم يتوقف ويرفع قدمه إلى الشمس ويزمجر "اتركينا يا قحبة". خشي الرجال النظر إلى عينيها لزمن، ثم لاحظوا شيئاً فشيئاً أن النور عاد ليجري فيهما فاقتربوا منها.

استقبلت الشيخ أحمد في دارها، وهو شيخ خطر وبهي الملامح وفي حياته حروب لا توجد في حياة أحد. لم يكن الشيخ أحمد قد خسر سوى سِنّين أو ثلاثة بسبب ما عاينه من رياح وأهوال في تهامة. سألها أول الأمر عن مسجد القرية، وكان ذلك السؤال ضرورياً للغاية كي تفهم المرأة أن الرجل على اتصال بالأخلاق، وأنه لا يتعدّى حدود الله. قالت إنه هناك وأدارت رأسها باحثة عن اتجاه المسجد. كان الشيخ أحمد رجلاً رهيباً لا يحتاج سوى لكلمة هُناك وسيعرف الباقي.

ذهب الرجل لصلاة المغرب ثم عاد فوجد أثمار وقد أعدّت له الحليب الدافئ والخبز، كان مما تبقى من خبز الصباح. سألها عن الحرب في القرية فلم تفهم سؤاله، وبقيت تنظر إليه، رمت ببصرها إلى واحدة من النوافذ الضيقة في ذلك الديوان مترامي الأطراف. ثم وجدت جواباً. قالت إن والد زوجها توفي بعد أن وضعت طفلتها بشهرين،

وأن الورثة أخذوا كل شيء وتركوا لها هذه الدار. كانت سعيدة لأنهم تركوا لها شيئاً، ففي العادة لا يترك رجال القرى للنساء شيئاً. وسألته إن كان ذلك يرضي الله فقال الشيخ أحمد وهو يتمهّل إن الله لا يحب رجال القرى. قالت المرأة "ليس كل رجال القرى ظالمين مثل أهل زوجي" فقال الشيخ أحمد "ولكن كل نساء القرى مظلومات مثلك" فقزت دمعتان أو عشر دمعات من عيني أثمار.

توقف الاثنان عن الحديث. منح الشيخ أحمد دموعها الوقت الكافي حتى تبلغ عنقها، ثم سألها ما إذا كانت قد شاهدت حرباً من نوافذ الدار فترددت كثيراً. لم تدرِ تلك المرأة المسكينة ما الذي يعنيه الرجل بسؤاله ذلك، ولا كيف لامرأة في جبل أن تقف خلف نافذة وتتفرج على الحروب. اعتقدت أنها لا بد وأن تقول شيئاً. قالت كلاماً غريباً وممتعا عن عدد من الأشياء التي لا علاقة لها بالحرب فوجد الشيخ أحمد حديثها بالغ الأثر، وفكّر بها. جلست قبالته على ضوء الفانوس، ولم تفكّر به. دارها مسكونة بالجن الصالح، تظن. قالت كلمات، قال هو كلمات. تبادلا الأسئلة، هو عن الجبل وهي عن الوادي. مرّ الليل. سألها عن مؤذن القرية، هزت كتفيها وقالت يؤذّن. تبادلا الأدوار، سألته عن الجبل، وسألها عن الوادي. أرادت أن تسأله عن حال زوجته، ابنة أختها، ولكنها ابتلعت السؤال فجأة. مرَق شهابٌ في تلك اللحظات وشاهده رجلان من أهل الوادي وبضعة رجال من الجبل، ونبحت كلبة جريحة في مكان ما. قال أحمد إن الله

عظيم، ولم يكن لقوله ذاك من مناسبة. وقالت السيدة أثمار إنه واسع الرحمة ففهم الشيخ حديثها على نحو خاطئ، وبُهِت. سألته ما إذا كان يفكّر بالنوم، وسألها إن كانت ستصلي الوتر. ومن ثيابه تصاعدت رائحة مسافر مسّته الجن، ومن خصرها المدفون في الظلام صعدت رائحة أرملة. يعرف تلك الرائحة، ويعرف أكثر كيف يحتال على الله ويدفعه للمغفرة. قامت للصلاة، قام هو للصلاة. صلّت هي في غرفة قريبة من الديوان، كانت ابنتها ذات الأعوام الأربعة تلعب وتتحرك، وكان الليل يرتخي كأنه قِصّة قديمة. جلس أحمد بالقرب من نافذة، أخرج من صرّته بعض الأشياء. وقعت يده على دواته وأوراقه. الليلة تمر، إنها ليلة رائعة فيها قمر وأرملة. لا تزال السيدة أثمار في مكان ما في البيت، ربما تتأخر أو قد لا تطل عليه ثانية حتى الغد. أزاح الفانوس حتى منتصف الديوان وخلق لنفسه، لمكانه، شيئاً ما من العتمة الساحرة. ما إن سقطت نقطة الحبر على الورقة حتى فتحت أبوابها. رأى الأشياء، الشمس أولاً، سرعان ما هوت واختفت فصعد القمر في قطرة الحبر، كان قمراً بريّاً. تلاشى القمر البري وحل الظلام الشامل، تفتحت أبواب كثيرة وتلاشت. القطرة تتلألأ مثل كوكب قريب، عينا أحمد ترتعشان. أفرجت تلك القطرة عن كون واسع بداخلها عدا باب واحد بقي مغلقاً. خلف الباب هدير. فُتِح الباب فرأى مدرجات جبلية تحت ضوء القمر. رأى رجلين، أحدهما يحمل الآخر على كتفيه ويمَكّنه من التسلق على شجر القات. في تلك اللحظة دخلت السيدة

أثمار وألقت التحية على الضيف ولكنه لم يرُد. ارتعدت السيدة أثمار، خشيت أن يكون جن الدار قد أمسكوا بالضيف. هبّت إلى الفانوس ورفعته، اقتربت من الشيخ أحمد، وهناك التفت إليها الرجل شارداً ومنذهلا، رأت في عينيه ما لم تره في عينين من قبل. أشار إليها بيده دون أن ينبس بكلمة، فجلست إلى جواره وحدّقت في القطرة. صرخت الله أكبر، وردد خلفها الله أكبر، وكاد أن يغمى عليها لولا أن الشيخ أحمد أمسك بكتفيها أولاً ثم بخصرها. وعندما حاول إبعاد يديه تطوّحت مرّة أخرى فأبقاهما هُناك، هُناك فوق تلك الأشياء التي خلقها الله لتفرح البشرية كلها. كانت تهذي وهي تحدّق، وكلما غرقت في هذيانها صعدت رائحتها أكثر. كانت تردد اسمين، قالت "الرجل الواقف هو عبد الله، الراجل الراكب هو جعفر". ومضت تهذي وهي ترتجف وتذكر الله. قالت "كان شكّي صادقاً. طلبت منهما اليمين فحلف جعفر أنه لم يضع قدماً على أرضنا، وأقسم عبد الله أنه لم يمد يده إلى شجرة. كانوا صادقين وفجرة" ثم أجهشت بالبكاء وألقت برأسها إلى صدر أحمد. انفجرت الدفعة الأولى من الدموع ثم سكنت، ثم جاءت الدفعة الثانية وكانت مصحوبة برعشة في الرئة والنهدين. أما الدفعة الثالثة من الدموع فكانت شحيحة، وكانت مصحوبة بحركة في الخصر والساقين، وهي مما لا يحدث عادة مع الدفعة الثالثة. لاحظ أحمد أن أثمار بنت محمد قد وضعت إصبعه في فمها وجعلت تعضها أحياناً وتلحسها أحياناً أخرى، ومن وقت

لآخر تلعن الرجلين، وترتعش وتذكر الله. كانت ليلة رهيبة، غاية في الرهبة، كل ما فيها مثير وغامض ومرعب بما في ذلك اسم الله. حدثت فيها أشياء لم يخطط لها الشيخ أحمد قط، كما لم تنتظرها تلك المرأة الطاهرة. حتى الجن لم يسبق لها أن شهدت ليلة كتلك في هذه القرية، قرية يعقوب، حيث مات الأسلاف وهم يعتقدون أن قريتهم راسية على كنز . كانت أثمار سعيدة جدّاً، وعندما نهضت لصلاة الفجر بحثت عن الوجع الذي كان يضرب ظهرها فلم تجده ثم نسيته إلى الأبد. الشيخ أحمد لم ينم تلك الليلة، تبقيه رائحة الأرملة حياً ويقظاً حتى في أسوأ المعارك. الآن، أو آنذاك، وقد تشبع بتلك الرائحة أراد أن يرى أنف جده. وضع قطرة حبر أخرى على ورقة واخترع أوراداً ورددها. قال مغمض العينين: العجَل العجَل، الساعة الساعة، الوحا الوحا، أروني جدّي، أروني الحاج راجح بن سلطان بن حسن، العجَل العجَل. أبرقت القطرة، سمع بداخلها مطراً وكلاباً، ثم ريحاً وغماماً، تلاشى كل ذلك وجاء الناس. كان جده في وسطهم. غمغم الشيخ أحمد "لفّتوه، لفّتوه" فالتفت الجد ورأى الحفيد عينيه. كانت لحيته ناصعة البياض وأنفه لا تزال معقوفة كما كانت. وقعت عيناه على عيني حفيده، حدّقا في بعضهما لبرهة، غلت عينا الجد وتصاعد منهما دخان كثيف وانطفأت قطرة الحِبر. قام الشيخ أحمد وركبتاه تتلاطمان كموجتين تائهتين. ركض حتى غادر الدار. أراد أن يهبط الجبل كما فعل في ذلك اليوم بعد أن نهره جده وقال إنه يهين

عظمة الأنف المعقوفة. أراد أن يقفز من الجبل إلى الوادي ولكن الكلاب نبحته، وكان بينها كلب أسود اسمه عنتر كاد أن يلتهمه. عاد الشيخ أحمد إلى الديوان ونام تلك الليلة. نام واستراح كل ما فيه عدا أنفه.

أشرقت الشمس، واستيقظ عنتر على ظهر المقبرة.

بعد صلاة الظهر تعرّف الشيخ أحمد على بعض الرجال. مع الأيام سيتعرف على المزيد منهم، وسيألفه عنتر. سيحاول أن يغيّر اسم عنتر مراراً ولكن عنتر تجاهل كل تلك الأسماء السخيفة التي جاء بها الشيخ أحمد من الوادي. أصبحت روح أحمد خفيفة في الجبل، بل شديدة الخفّة حتى ظن أن بمقدوره أن ينكح الطيور. وكان يفكّر بخفة روحه وطيشه ما إن يحل الظلام. ولا بد أنكم تعرفون جزءاً من الجواب الذي توصل إليه. السيدة أثمار بنت محمد انتقلت للسكن في منزل والدها مؤقتاً، فلا يليق بأرملة محترمة أن تبقى في الدار. تعرف أهل أثمار بنت محمد على الشيخ أحمد، وأصبح ذلك الديوان المهيب مكانا يلتقي فيه الناس إلى أن صار ديوان القرية الأهم. عشق الشيخ أحمد القات وصارت تقدم إليه أفضل الأغصان. و في بعض الليالي كان يجهش بالبكاء والنحيب وكانت القطط تحوم حوله إلى أن تهدأ روحه. وما كانت لتهدأ حتى يحدّق في قطرة الحبر وتحدّق معه القطط ويرى جبله البعيد. ساعات كان يرى

أهله يركضون ويعملون، وتارة لا يرى سوى شواهد القبور. وجاءه حسن، وكان رجلاً يحفظ الحديث الشريف وأسماء كل اللصوص، وشرح له سر بكائه المتكرر. قال إن الأغصان التي أكلها هي أغصان نبتَت على تراب مقبرة، وأن أهل المقبرة كانوا بلا شك قساة القلوب. وذكر له سلطان الذي نزلت شعلة أثناء دفنه وأحرقت كفنه. وذكر له هزاع الذي فرّ الناس بعد دفنه دون أن يكونوا قد أكملوا سورة يس ولم يجرؤ أي منهم على الحديث عمّا سمعه.

حين يتوغل الليل في الجبل يعاني أحمد. يعاني من الحنين، ومن عضوه، ومن تلك الأشياء التي تكشفها قطرة الحبر. وعدته أثمار أن لا تخبر أحداً عن أمر تلك القطرة، ولكنها أخبرت امرأة واحدة فقط، وتلك المرأة أقسمت لها بثلاثة أولياء أو بأربعة أن لا تخبر أحداً. ولكنها أخبرت امرأة واحدة فقط بعد أن أخذت منها أغلظ الأيمان، وتلك التزمت بعهدها ولم تخبر سوى امرأة واحدة وحسب بعد أن حلفت واقشعرّ جلدها من الحلفان فلم تخبر سوى امرأة واحدة. إلى أن وصل الخبر إلى الرجال، ثم صار الشيخ أحمد أخطر رجل في ذلك الجبل المهيب، وأحبه الناس وخافوا منه، وصاروا يعتقدون أنه قادر على رؤية ما بداخل السحاب، وأنه عملهم الصالح. وفرّ جعفر وعبد الله من الجبل بعد أن عرف الناس بفعلهما، وعاشا بين الآكام والمنحدرات أحدهما ينكح الجن والآخر يلقي الأحجار على الملائكة، وسيتقافزان في الجبال إلى أن تأتي

الريح الأخيرة. وهي ريح حمراء ستأخذ معها أقسى الرجال وتسوقهم إلى أسوأ حرب عرفها الناس، الحرب التي لن ينجوَ منها سوى الذين نكحوا الجن وباعوا أكفان الموتى.

تسامع الناس بأخبار الشيخ، قالوا إنه إذا حل الليل جلس ورأى أفعالهم. تناقلت النسوة خبراً يقول إنه لا يرى النساء المحتشمات. وتناقل الرجال خبراً يقول إنه جاء من الوادي ليرى الخطايا والآثام. وقالت امرأة مسنّة لبناتها المتزوجات "تلك كرامة من الله وكل كرامة زائلة إذا لم يصنها صاحبها". وبشرتهنّ "إذا وقعت عينا هذا الرجل الصالح على فتّالة فإن الله سيمحق سرّه". كانت تلك بشرى رهيبة تلقتها البنات، ومن فرط ارتباكهن سألنها بصوت واحد عن فتّالة القرية، فمصت العجوز شفتيها وحركت عينيها في وجوه بناتها الثلاث ولا يدري سوى الله ما الذي دار في قلبها آنذاك.

وللرجال، كالعادة، نسخة أخرى من تلك الأمنية: أن تقع عينا الشيخ أحمد، وهما تستطلعان كل شيء، على المأبون زكريا. لو حدث فإن عيني الشيخ أحمد ستنطفئان. كان زكريا مأبون القرية، كان طيب القلب لا يفعل ما يغضب الله، وكان يذهب في الجنازات ويحمل النعوش من المقدمة. وعندما وصل الهمس إلى أمه وعرفت عن ابنها السر راحت تقرأ عليه الآيات التي تداوي تلك الآفة. ثم استراح قلبها بعد ذلك، ولم تعُد تأبه.

في الشتاء القادم لم تحدث سرقة، أي سرقة. ثم مع الأيام توقف الناس عن حراسة أرضهم ومكثوا في بيوتهم يحبّلون نساءهم ويسمنون. وعاش المأبون زكريا طاهراً وسعيداً لا يذهب إلى الجبال ولا يخرج في المطر، وقد رآه الشيخ أحمد مراراً وسأله عن أمه.

تعاظم شأن أحمد والتمس المساكين رحمته وعونه. علم الناس إن حِبره يكشف الخبايا والأسرار للمحتاجين، وقيل لهم أن شرط الشيخ أحمد هو أن يصطحبوا معهم أطفالاً غير بالغين. كان الأطفال يجلسون أمام القطرة يشاهدون ما جرى، بينما تجلس الأمهات في الطرف الآخر من الديوان ينتظرن البشارة. وشوهدت امرأة اسمها صفيّة بنت صالح وهي تخرج من دار الشيخ منكسرة وتصفع ابن جارتها وكان اسمه عدنان. كانت تصفعه كلما تأكدت أن الناس لن تراها، وتنهره قائلة "لماذا كذبت عليّ عندما سألتك قاخرج العُظّامي؟".

وكان عدنان يبكي ويحشرج ويرد عليها دون أن يجرؤ على النظر إلى عينيها:

"والله ما خرج".

حلت السكينة على الجبال، وخشي الناس أن تمضي تلك الأيام.

قيامة أحمد

تسامع أهل الوادي بما يجري مع الشيخ أحمد في الجبل واستقبلوا القصص بشغف وحزن. كل جبليّ نزل بحكاية أو بالكثير من الحكايات، كانت الحكايات هي المدافع. لقد حانت ساعة الحقيقة، وآن للجبلي أن يسترد كرامته. يتندر أهل الوادي على لهجة وهندام أهل الجبل، هكذا هم من غابر الأزمان. السوق الذي ينتصف الوادي، وتقع شجرة الغريب في منتصفه، هو المكان الذي يذهب إليه أهل الوادي ليسخروا من القادمين من الآكام والجبال. يكرر أهل الوادي، دون ملل، النكتة نفسها عن الجبلي الثرثار الذي كلما طُلب منه أن يحلف كان يقول أنا زوج المُرعّف. وهي كلمة اخترعها أهل الجبل للإشارة إلى المرأة ذات الأنف الكبيرة. ما الذي تغيّر؟ لقد امتلك أهل الجبل، فجأة، الشيخ أحمد. يقول أهل الوادي إنه رجل محتال، ويقول أهل الجبل صارخين وغاضبين بل طاهر وولي. قال رجل من الوادي سنضرم النار في داره فرد عليه أعرج من الجبل "سنبني له قصرا". ذهب نفر من أهل الوادي إلى ذي القرنين في مجلسه، وقد قدّمت له القهوة، وقالوا له "يزعمون أن الله كف أيدي السرّاق في الجبل، وأن الرجال أصبحوا يقضون الليالي مع نسائهم". فقال ذو القرنين بعد تمهّل "وسنترك نحن نساءنا في البيوت ونخرج في الليل لنحرس الغِلّة". وسألهم إن كانوا

قد سمعوا بما حدث البارحة في أعلى الوادي فحدقوا فيه محتارين. هزّ ذو القرنين رأسه وقال "لا حول ولا قوة إلا بالله"، فقالوا جميعاً لا حول ولا قوة إلا بالله وشعروا بمرارة ما حدث البارحة في أعلى الوادي. خنقت الغصة بعضهم، وشعر آخرون بأن يوم القيامة قد اقترب. انفض اللقاء وذهب الناس إلى شؤونهم تملأهم الحسرة على ما حدث بالأمس في أعلى الوادي، بالرغم من أنهم لم يعرفوا ما الذي حدث في أعلى الوادي، ولن يعرفوا قط.

سمعت قمر، وهي في الوادي، الكثير من القصص عن زوجها وتقافزت بين الشك واليقين. وفي كل الأحوال فقد لجأت إلى اللّه، وكانت تدخل غرفتها وتصلي صلاة الأوّابين وهي لا تدري لماذا عليها أن تختار تلك الصلاة. فقد وقفت على سجادتها حتى انتصف الليل وعندما سجدت للمرة الأولى كانت قد نسيت كل شيء لهجت به وهي واقفة.

بعد انقضاء بضعة أشهُر بحث الناس عن الشيخ أحمد ولم يجدوه. كان قد أسرّ إلى أثمار بنت محمد بأنه سيذهب إلى الوادي لزيارة زوجته وأطفاله، ولينظر ما إذا كانوا بخير.

"ولكنك تراهم من هنا"

قالت له، فجعل يعض سبابته ويتمتم:

"أرى كل شيء عدا أهلي".

الحقيقة أنه أراد أن ينزل إلى السفح، وأن يدور حول الجبل دورة كاملة ليرى ما إذا كان آمناً.

الجبليون انتظروه في قابل الأيام. تتابعت الأيام وتشابكت الأخبار والحكايات حول مصير الشيخ أحمد. من بين كل القصص التي رويت صدّق الناس القصة التي تقول إن الشيخ أحمد لم يكن بشراً، وأنه ربما كان هو نفسه الله جاء ليختبر إيمان آخر الأقوام. ذهب الشيخ أحمد، الذي أخفى حقيقته عن البشر كما فعل من قبل، لكي يقيمَ القيامة. بعض الناس أحس بالسعادة والزهو، فقد تناول الإله معهم الطعام ثم أمر ملائكته أن تنفخ في الصور. تداخل كل شيء، واختلط الدخان بالغمام. وقال الرجل لأخيه "هل حقّاً رأينا الله؟" وهمس شيخ بابنه "ألم يقل الله لموسى حين أراد رؤيته انظر إلى الجبل؟". هرب الناس إلى منازلهم وعاد الرعيان إلى عششهم، وتركت امرأة غنماتها الثلاث في الحقل وعادت إلى منزلها وهي تلهث "لقد وهبتهنّ لك يا الله". ولكن ابنتها نهرتها قائلة "وماذا سيفعل الله بأغنامك؟". ثم وقفتا تحدقان في الغنمات الثلاث وهن يتسلقن الحقول ويحتمين بأشجار القات إلى أن نزلت غمامة صغيرة

وأخذتهن. رأت الأم غنماتها يصعدن في السماء فأمسكت بكف ابنتها واستدارت إليها. "قولي إنك لم تقترفي الكبيرة" توسلت الأم لابنتها. "وأنت؟" قالت ابنتها لاهثة. وعلا نحيبهما حتى بلغ عنان السماء.

مرّت الأيام، سكان الجبل ينتظرون القيامة، انكبوا على الصلاة والقرآن. لم يحدث أن قرأوا القرآن كما فعلوا تلك الأيام، ولم يكن في القرية سوى أفراد قليلين يجيدون قراءة القرآن، بينما تلا الآخرون من رؤوسهم. وجد الرجال في القرآن آيات كثيرة تؤكد لهم أن الشيخ أحمد كان هو الله. ووجدت النساء في القرآن آيات لا حصر لها تقول إن الشيخ أحمد ليس الله ولكنه سيذهب إلى السماء وسيفعل شيئاً مروّعاً. وكانوا يتساءلون مرتجفين "من أغضب الشيخ؟". كان محمد سعيد، الذي تشكك بكل ما سمعه، خائفاً ويصلي مثلهم. غير أنه كان ينجح أحياناً في السيطرة على ذعره ويقول لأهل بيته " القرآن لما قرئ له، ولو بحثنا عن آيات تقول إن الشيخ أحمد هو المسيح الدجال فسنجد تلك الأيات في أول صفحة".

ثم زحفت سحابة رصاصية قادمة من البحر، فلما رأوها خرّوا سجداً. كانت السحابة تمطر في الخارج، الرعود تخرج من شقوقها، والماء يجري بين الديار، وما من شيء آخر في تلك الدنيا سوى ذكر الله. أما الكلب عنتر فراح يتمشى في المقبرة متلهياً

بذلك المطر الغريب، وقد أحسّ مثلهم أن شيئاً ما قد يحدث. ثم صرف الفكرة من رأسه فالدنيا غريبة الأطوار على كل حال، ولولا إنه يحرس المقبرة، وقد وعد الموتى، لما بقيَ في ذلك الجبل ليلة واحدة.

ولمّا عاد الشيخ أحمد ووجد القرية خاوية على عروشها أسقِط في يده. كان يمشي متوجساً وخائفاً ولا يسمع حسّاً. ولما رآه القرويون من شبابيكهم الصغيرة كبروا وهللوا، وانتظروا قليلاً. ولما تأكدوا أن خطواته لا تشبه خطو الله خرجوا إليه يركضون. لم يخجل رجال القرية من تلك الحكاية ولم يتذكروها، كما لو أنهم ماتوا وبعثوا من جديد.

أما النساء فكن قد فقدن احترامهنّ لأولئك الرجال الذين ما إن اختفت عمامة شيخهم حتى خروا سجّداً وجلسوا ينتظرون القيامة.

غزلان في الجبل

أما الطفلة غزلان، التي لا تزال مع أمها في الوادي، فراحت تصنع المزيد من السفن. جعلتها مدببة من الأمام حتى يكون بمقدورها صعود الجبل. ولمّا رأت الهلع في عيني جدتها ذهبت إلى غرفتها وعادت بست سفن ووزعتها على النساء اللاتي قدمن لزيارة قمر.

"إلى أين سنهرب بالسفن؟"

سألتها خالتها، وكانت امرأة صالحة بعض الشيء.

"إلى البحر" قالت غزلان.

"ولكن أين هو البحر؟" سألتها خالتها الأخرى، وكانت امرأة لا تعنى كثيراً بالصلاح.

"كل جبل خلفه بحر" قالت غزلان.

ورددت أمها منكسرة:

"وهل البحر آمن؟ حتى البحر ليس آمنا"

قالت غزلان، وهي تقترب من أمها:

"بعض البحار يعيش فيها الشيطان"

"وكيف سنعرف إن كنّا سنلاقي الشيطان أم الملائكة؟" سألتها الجارة، وكانت امرأة لن تلد قط.

قالت غزلان، وهي تفرز سفنها:

"إذا رأينا الشيطان سنقفز من هذه السفنيه إلى هذه".

"وما الفرق بينهما" سألتها الحاجة مُحسنة، وكانت امرأة طيبة تسعل منذ عشرين عاماً، وربما لن تموت قط.

"هذه سفن الروم، سنقفز عليها إذا جاء الشيطان. وهذه سفن المُسلمين، سنركب عليها إن رأينا الله". قالت غزلان.

وما إن سمعت النسوة كلمة "رأينا الله" حتى تصارخن لا إله إلا الله، لا إله الله. وأمسكت إحدى الخالات بجبين الطفلة وقرأت عليها قل أعوذ برب الناس. ثم همست في أذنها بكلمات متقطعة "البشر لا يرون الله". لم تقل الطفلة شيئاً، ولم تنظر في وجه خالتها. كانت تحدّق في مقدمة السفينة التي في يدها معجبة بالطريقة التي يبني بها الروم سفنهم. غير أن غزلان لم تفهم سبباً لذعرهن فقد كان والدها يقول لأمها حين تسأله عن وجهته "ذاهب لأرى وجه الله". غالباً ما كان يقصد البحر.

في الأثناء تلك، ولا يعرف أحد لماذا، وقف رجل أمام منزل قمر وكان يلبس الأزرق ويحمل كيساً على ظهره. صاح الرجل "يا أهل الدار". دخل الرجل ذو الأزرق، تجمعت النسوة في ركن الدار، الركن المطل على بيت عيسى، وكان عيسى رجلاً على باب الله مات قبل مائة عام وبقي بيته عامراً.

نظر الرجل إلى أطراف الديوان، إلى خشب السقف، قفز مرتين ولمس السعف بين الأخشاب. أغمض عينيه ورفع يديه إلى محاذاة أذنيه وقرأ:

"ألم تر إلى ربّك كيف مد الظلّ ولو شاء لجعله ساكنا، ثم قبضناه إلينا قبضاً قبضاً قبضاً قبضاً قبضاً قبضاً .."

عند قبضاً العاشرة أو الحادية عشرة شاهدت النسوة شيئاً يهوي من سقف الديوان ويرتطم بالأرض. انحنى الرجل والتقط ثعبانين، دسهما في صرّته ومضى. رأت غزلان ما رأته الأخريات وفكّرت بمكان للثعابين على ظهر سفن الروم. إلا أنها وجدت سفن الروم تصلح أكثر من سواها.

كان والد قمر في مجلس الشيخ طه ذلك النهار. كان مجلس ذلك اليوم من أسوأ المجالس سمع فيه الشيخ طه ما كان يخشى حدوثه. أراد أن لا يقول شيئاً حتى لا يؤذي مشاعر والد قمر. بينما الحديث يجري من كل جانب تذكر رجل أن الشيخ أحمد

كان يهودياً في صباه، وقال الآخرون إن اليهودي سيبقى يهودياً وإن صلى وحج البيت. وقال الشيخ طه كما لو أنه يمزح إن اليَهْوَدة دودة في القلب، وضحك الناس كثيراً لأنهم فهموا بفطرتهم أن الشيخ طه يقصد مكاناً آخر غير القلب. لم يروِ والد قمر لابنته كل ما سمعه لكنه صارحها بخوفه من أن لا يعود زوجها إلى الوادي. سألها بإلحاح ما إذا كانت قد لاحظت عليه شيئاً مريباً. ثم جلس أمامها وقال إن الشيخ أحمد كان بالفعل رجلاً مريباً ولكن الطاحونة جعلتهم ينسون تلك الحقيقة. ثم تراجع عن تلك الأفكار وعاد إليها مرة أخرى.

"أرسل إليّ يريد أن ننقل الطاحونة إلى الجبل" قال والدها.

"وما المانع؟" سألته ابنته.

"المانع كثير" قال الرجل.

وتعثر بتلك الكلمة، بقيت تدور على لسانه وفي رئته. خرجت من أنفه، تنقلت بين وجنتيه، وجعل يدخلها إلى رئته ويخرجها ولم يدر كيف ينتقل إلى الكلمة التي تليها. حتى إن ابنته قامت من مكانها وأعطته شربة ماء فاستطاع الرجل ابتلاع تلك الجملة الرهيبة، وهدأت نفسه، وشكرت ابنته الله.

مرّت الأيام، وجاءت الشمس أكثر من مرة. صار الزرع في أعلى الوادي أكثر من الزرع في الأسفل. ولاحظ الحاج زُط شعرات بيضاء على شاربه فأدرك تفاهة الدنيا، وفهم لماذا يغضب الله أحياناً لأسباب لا تستحق الذكر.

صار طريق الأسفلت على بُعد نظرتين من مقهى زُط. وصار زُط يرسل الصبي والآخر لمعاينة الطريق واستراق الأخبار، وتذكر ما كان يقوله الشيخ أحمد عن الحروب. لم يسبق له أن أخذ تلك الأحاديث على محمل الجد ولكن ماذا لو أن صديقه كان على حق، وأن هذا الطريق سيجلب الإنجليز بمدافعهم الرهيبة؟ ما يتناقله الناس عن قطرة الحبر التي فرّ بها الشيخ أحمد إلى الجبل هزّ الوادي. يذهب الناس إلى مقيل الشيخ طه في المساء وإلى مجلس ذي القرنين في الصباح، يريدون أن يفهموا شيئاً. لقد روّعتهم تلك القصة، وأخافت مواشيهم. بعضهم ذهب إلى مقهى زُط ليسرق الأخبار غير أن الحاج زُط لم يكن ليمشي مع التيار. فقد عاش تلك الأيام عندما كان الناس يرمون صديقه أحمد بالنعال إذا تأخر المطر عن موعده، وإذا عجزوا عن إدراك هلال رمضان. لا جديد في سيرة صديقه سوى أن ذا القرنين يريد امرأة يركبها، وهو من يثير كل تلك القصة علّه يرث مكانة الشيخ أحمد، حينذاك سيكون بمقدوره الحصول على امرأة يركبها. الرجل الذي ليس في حياته امرأة هو رجل خطر ليس لشروره قرار. ربما انطبق هذا الأمر على الحاج زُط نفسه، ولكننا لا نعلم ما الذي يفعله زُط في السر. سأله

أحد المسافرين، من نزلاء المقهى، عن قصة الشيخ أحمد فقال زُط إن مصدر تلك الترهات رجلٌ لم يعرف في حياته سوى دبر المؤذن. وعندما عاد السائل إلى قريته، بالقرب من عدن، روى تلك القصة لصديقين فمرض أحدهما ثلاثين يوماً ومرضى الآخر جمعة كاملة.

قيل إن الشيخ أحمد عثر على تلك القطرة في واحدة من حيدان الخضر، والحيدان هي مغارات خاصة كان الخضر يضطجع فيها حين تدركه الشمس أو يسبقه الليل. عثر الشيخ أحمد على سرّ الخضِر وفرّ به إلى الأعلى حارماً أهل الوادي من البركة. في صباه جعل الشيخ أحمد، بالقصائد التي جاء بها، السحاب تكفّ عن المجيء. ولأوقات طويلة لم يكن الناس يرون سوى السحب البيضاء التي لن تمطر قط، وإذا اصطدمت بالجبال فإنها تصير إلى غمام. الآن وقد صار شيخاً ها هو يسرق سر الوادي ويهرب، تاركاً خلفه أرضاً سيستبيحها أي شيء حتى اللحوج والجراد، وقريباً الإنجليز. سُمع أناس يقولون إنهم فقدوا أشياءهم. وقال الرجل الذي يأخذ الكراء من باعة المواشي إنهم باعوها لأهل الجبل، وما إن سمع ذو القرنين هذا الخبر حتى علا صوته وقام من مجلسه وقال إنه سيذهب إلى الشيخ طه ويخبره. لكنه عاد بعد قليل وجلس، وكان يغمغم بنبرة تشبه نبرة الخضر، وحلّت الرهبة في المحل حتى إن كل الموجودين

صاحوا بصوت واحد "شششششش" في وجه الطفل ذي عشرة أعوام الذي جاء مهرولاً إلى الدكان وفتح فمه قائلاً "أمّي تقول لك .."‏.

"كم اشترى الجبليون من المواشي اليوم وأمس؟" سأل ذو القرنين.

"كلّهن" قال خمسة رجال، أو كل الرجال.

"أي يوم من شهر شعبان هو اليوم؟"

"الرابع عشر، الثالث عشر، الرابع عشر، الرابع عشر، الراب.."

"الثالث عشر" ردد ذو القرنين ونظر إلى سقف الدكان كما لو أن قمر الليلة الماضية جالس هناك.

"الشعبانية" قال صاحب الدكان.

الحمار الذي كان واقفاً على الجهة المقابلة للدكان، وكان يدور حول أنثاه منذ ساعة، سئم من هذه الدنيا ومن ترّهاتها ونهق. تعوذوا جميعاً من الشيطان الرجيم، عدا ذي القرنين.

"لم نسمع مثل هذا النهيق من قبل. أليس كذلك؟" قال ذو القرنين وهو ينظر في عيني أحد الرجال.

"نعم، لم نسمع مثل هذا النهيق من قبل" واقشعر بدن الرجل والرجلين والثلاثة.

"لعنة الله عليك يا شيخ أحمد" قال ذو القرنين.

غمغموا جميعاً. وأشار صاحب المحل إلى الطفل وأعطاه أذنه فهمس الطفل "أمي تقول لك" ولكن الحمار عاد ونهق ومط نهقته حتى اعتقد ذو القرنين إنه سيمطها حتى الغد، ولماذا لا يفعل.

نزلت الشمس. قام ذو القرنين وعاد إلى كوخه في أعلى الوادي. في الطريق لمح امرأة تغرف الماء من النهر وتردد موالاً عن زوج لم ينتبه قط لجمال امرأته. توقف ذو القرنين وحاول أن يجد إشارة ما في تلك الأغنية. أوصلت المرأة ذلك الموال إلى منتهاه حيث تتمنى الزوجة مضاجعة تكسرها من الخصر. لم يجد ذو القرنين من إشارة في الموّال ولكن أمنية المرأة هزّته بعض الشيء، وفكّر بالنحيب. فليس في حياته من خصر صالح للكسر سوى خصر المؤذن، وقد كسره الرجال كابراً عن كابر. مضى ذو القرنين في طريقه، وفي البيت الذي على هيئة كوخ قلّب بعض الكتب ولم يكن يبحث عن شيء بعينه ثم وضع كل شيء جانباً، وخرج. وقف أمام كوخه ونظر إلى الجبل فسمع قصائد السماع ونحيب الموالد قادمة من الجبل. رأى الناس يمشون في جماعات سعداء وأبراراً، أحس برائحة البركة، ولمح النبي على بغلته الصهباء يتقافز

في الآكام يقصد الجبل. وكان أحمد يجلس على عرشه يحمله عشرات الرجال، وعلى رأسه السماوات السبع، وهو مبتسم ويحرك شفتيه ولا يقول شيئاً. وظنّ ذو القرنين أن الشيخ أحمد سيفقد سنّا لفرط ما هو فيه من السعادة. ولما أفاق من تلك اللحظة لام نفسه لأنه منح أحمد منزلة الشيخ. وتذكر كيف كانا ينكحان البهائم أسفل الوادي، ويسرقان التين.

غداً هي الشعبانية، فيها تتنزّل الرحمة ويوزع الله أرزاقه على الشيوخ، وسيهبط القمر درجات كثيرة حتى يدنو من الوادي، وسيحمّله الرّعيان بالزرِير، وهو حليب الإبل المخلوط ببولها. سيحمل القمر هدية الرعيان إلى أهل السماء الثانية، وهم أقوام شتى يسكرهم ذلك الشيء ويجعلهم يحتملون البعد عن أرضنا الطيبة.

يعرف ذو القرنين أين سيجد الشيخ طه. التقاه في اليوم التالي وسارا معاً حتى بلغا الدار. اقترح الشيخ طه إرسال جواسيس إلى الجبل، وقال ذو القرنين إن الوقت تأخر كثيراً وأن الشيخ أحمد سيراهم وسيرسل إليهم من يقتلهم، فهو يهودي وسيفعل ذلك. وقال للشيخ إنه يعرف عن الشيخ أحمد ما لا يعرفه الآخرون، ووجد الشيخ طه كلام الرجل جارحاً فما من أحد بأكثر معرفة منه. جلس الرجلان في ديوان الشيخ وقدمت لهما قهوة الزنجبيل في فناجيل من الخزف.

"لماذا لا نفهم الأمر بشكل مختلف؟" تساءل الشيخ طه.

هز ذو القرنين رأسه منتظراً مزيد من التفصيل.

"لقد استرحنا من الشر. تتذكر ما حدث للوادي منذ مجيئه. كل حياته مريبة وغامضة، حتى الطاحونة التي أدرّت له المال، لماذا لم نفكر بشراء طاحونة مثل طاحونته. لقد تركناه يبتلع أموال الوادي والجبل حتى استطاع أن يشتري أفضل ما في هذه الأرض. حان الوقت، وعلينا أن نعمل جميعاً على دحر هذا الشيطان وتحرير أموالنا وأرضنا. كيف لم نتنبه إلى حقيقة الرجل، أعني كيف نسيناها بسرعة؟ قصائده وأحاديثه التي كان يلوكها عن حروب لم يسمع بها أحد قبل أن يتوقف عن ذلك الهراء. مواسم القحط الطويلة، والسحب البيضاء التي لم نعرفها سوى في حياته، وحتى حياته مع اللحوج. هل تصدق إنه كان يعلمهم الشعر؟ الحقيقة أني اعترضتُ على الحاج مهيوب، وقلت له عندما استشارني لماذا لا تزوج ابنتك لعبد الإله بدلا عن ذلك المشعوذ اليهودي. قال لي إنه سيشاور ابنته وبعد أيام زوّجها له. هل تصدق أني لم أدعه قط إلى داري، كان يجيء من تلقاء نفسه، وأكثر ما كان يغيظني عندما يستغل فترات الصمت في المجلس ويتحدث عن الشعراء والسيرة. أنت رجل صالح يا عبد الإله، تتحدث عن السيرة والشعراء ولا يجري شيء. أحمد شيء آخر. أعرف أنكما كنتما

تنحكان البهائم أسفل الوادي، وأعرف أنك كنت تنكح المؤذن أيضاً حتى وفاته. كل شيء يصلني، لدي العيون والرجال، ولكنك رجل صالح يا عبد الإله. هل تصدق أني فكرت بقتل المؤذن، أتدري لماذا؟ قلت لنفسي لو ركبه المشعوذ أحمد فإن الجبلين سينطبقان علينا. لكنك مسكين يا عبد الإله، مهما فعلت فأنت مسكين وفاضل".

ثم ارتخى صوت الشيخ طه أكثر وأكثر، وخرجت تلك الرائحة التي تعرفها فطرة ذي القرنين. وإذا ارتخى كلام الشيخ فإن كل شيء بين السماء والأرض يرتخي. وجعل يعيد حديثه عن المؤذن ووجد ذو القرنين الحديث عن المؤذن غاية في المتعة. في اللحظة تلك كان الشيخ أحمد يجلس في ديوانه في الجبل، ينظر في قطرته، ويستطلع الوادي. لا تفتح له قطرة الحبر أبواب البيت، ولكن شبابيك ديوان الشيخ طه كانت في تلك الساعة مفتوحة. اهتزّ الشيخ أحمد في مكانه من هول ما رآه وصاح "لعنة الله عليك يا ذا القرنين".

منذ اليوم التالي قرر الشيخ طه مصادرة طاحونة الشيخ أحمد وبئره، وعهد بهما إلى ذي القرنين. لم يقبل توسلات الحاج مهيوب، وربما نهره. وأرسل رجاله إلى دار أحمد وطلب منهم أن يأخذوا أي شيء يجدونه غريباً عدا الكتب. عندما وصلوا إلى الدار كان مهيوب قد سبقهم إليه. رأى الشيخ أحمد كل ذلك من خلال القطرة، وكان يتجول في

ديوانه مثل وحش سقط من عالٍ. اصطحب مهيوب ابنته وأبناءها الثلاثة ومضوا معاً إلى داره، تاركاً لهم دار الشيخ أحمد ليفعلوا به ما شاؤوا.

قال مهيوب لأهله إنه لا يعرف سبباً لما يقوم به الشيخ طه، وقالت قمر إن ذا القرنين لم يحب زوجها قط. اقترح عليها والدها أن يرسلها إلى الجبل سرّا، فقالت صارخة "ولماذا سرّاً" فقال لأن الشيخ طه وعقلاء الوادي يطالبون بطلاقك منه، فقد عاد شيطاناً في نظرهم كما كان قبل عشرين سنة.

"ولكن ما الذي فعله أحمد واستحق عليه كل هذا؟" سألت قمر والدها.

"قالوا إنه وجد سر الخضر عليه السلام وهرب به إلى الجبل"

"كيف حدث ذلك؟ أنا أعرف عن أحمد ما لا يعرفه عن نفسه"

"لا أدري، أظنها مجرد وشاية كما أخبرتك قبل أيام. لننتظر قليلاً، سأحاول حل المسألة مع الشيخ طه. إذا أعطيناه جزءاً من دخل الطاحونة وبعض الأراضي التي تسيل لعابه فإنه سيخرس كل الألسن. دعينا نرَ".

توقف والدها عن الحديث، وكان متوجّساً من الكلام ومن الطريق.

الآن في المنزل.

كانت أم قمر غاضبة كما لم يحدث لها من قبل. وإذا غضبت أم قمر فإن الغيوم تذهب بعيداً. أخبرتهم قمر عن قطرة الحبر لأول مرّة، كان لا بد أن تخبرهم. استدعى الجد حفيدته غزلان فأخبرته عمّا رأته تلك الليلة. ما إن انتهت غزلان من حكايتها حتى هبّت أم قمر واقفة، وضعت كفها اليسرى على أسفل ظهرها كما لو أن برقاً ضربها وقرأت سورتين صغيرتين من جزء تبارك. بقي الجد في مكانه ينخش أذنه بإصبعه، يبدل بين أصابعه، إلى أن نخشها بإصبعه الإبهام، ثم أخذ عمامته ووضعها في حجره. كانت الشمس هناك، وكان الناس أيضاً هُناك، وكان كل شيء يقول إن الوقت نهار. وما من شيء غريب سوى أن ذا القرنين سمع في تلك اللحظات نهيق حمار فحلف أمام نفسه أنه لم يسمع مثله قط.

نجح الحاج مهيوب في إرسال ابنته وأبنائها إلى الجبل. للشيخ عيون في كل مكان ولكن الحيلة نجحت في آخر الأمر. قام اللحوج بالمهمة لقاء الكثير من القمح. وفرّت قمر مع أبنائها متنكرين في زي اللحوج، كانت سعيدة وهي ترى أبناءها وقد أصبحوا سود الوجوه وكان الأبناء سعداء وقد أصبحوا لحوجاً رائعين لأم سوداء منذ الصباح. اللحوج

لا يعرفون الجبال ولا يصعدونها، ويخافون أن تسقط عليهم بأي وقت. أوصلوا السيدة وأبناءها إلى السفح، فصعدت الجبل مع أبنائها.

عاد الشيخ أحمد إلى منزله قبل انقضاء النهار بوقت قصير، وضع قطرة الحبر في مكانها وألقى نظرة على الوادي. أراد أن يرى مرته. منذ قرأ تلك القصة في كتاب المستطرف وهو يخشى كل شيء. فالقصة التي ابتلعها الشيخ أحمد في شبابه وخشي أن يبوح بها لأحد تقول إن رجلاً ذهب في سفر وترك امرأته في الدار. ولأنه كان الرجل الوحيد الذي رأى امرأته ساجدة وعارية، ورأى مشهداً يشبه يوم القيامة، فقد خشي عليها من النجوم والهوام. كان يخرج في الليل إلى الصحراء، تاركاً رفاقه وجماله، ويصيح أمام الليل "يا ليت شعري هل بغت عليّ؟". وفي اليوم الثالث سمع منادياً يقول: نعم، نعم، وناكها حجيّة، وهو رجل أحمر في قفاه كَيّة. ولمّا عاد إلى بيته بعد أشهر من السفر جاء إليه الناس ليهنئوه بالسلامة فرأى بينهم رجلاً أحمر في قفاه كيّة. انتظر حتى خرجوا ثم سأل زوجته فقالت "ذلك أبر الناس بأهل بيتك". لا يعلم سوى الله ما الذي حل بالرجل آنذاك. للكلمات حدود، وتلك لحظة لا تحيط بها بحار كل الدنيا.

يحدق أحمد في قطرته. لم ير زوجته ولا أولاده، بحث عنهم ولم يجد لهم أثراً. قام وتحرك في ديوانه وكان يزمجر، عض أصابعه وشد شعره، ولكنه سيطر على مشاعره في آخر الأمر وجلس. استوى في مكانه، وقرأ: الوحا الوحا، العجَل العجَل، الساعة الساعة، أروني زوجتي. فتحت قطرة الحبر بابها، رأى الوادي من الأعلى. غمغم "أروني منزل الشيخ طه". رأى منزل الشيخ طه من الخارج. أروني منزل الحاج مهيوب. رأى منزل الحاج مهيوب. أروني داري، لم ير داره. دار في مكانه، قام وجلس، نهر القطط وزمجر أمام نفسه. قرأ وتلعثم، غيّر قطرة الحبر بقطرة أخرى، وضع قطرتين وثلاث قطرات إلى جوار بعض، بصق فيها، نخشها بيده، كانت تفتح له في كل مرة بابا وتغلق آخراً، رأى كل الأبواب عدا باب بيته، وكل النساء عدا امرأته، ورأى ما لا يعد ولا يحصى من أطفال الدنيا ولم ير أبناءه. ثم استجمع كل قواه، قبض أنفه المعقوفة بكفّه اليمنى، أغمض عينيه، استدعى سيقان جده المجروحة وتلك الشجاعة الغابرة وقال بصوت هز الجبل: "يا ليت شعري هل بغت عليّ". ومن قطرات الحبر الثلاث سمع: نعم نعم، لا لا، نعم نعم، لا لا. جاءت العواصف واختلط دخان الجبل بدخان الوادي، وتلك لحظة نادرة الحدوث في حياة أهل اليمن. رأى لحوجاً عند سفح الجبل، ومعهم أطفال. تساءل وهو يميل مثل سكران أو جريح ما الذي يريده اللحوج من الجبل،

وتمنى لو أنهم فروا بامرأته من حمقى الوادي. غادر الدار، وقف أمام الباب لبعض الوقت حتى هدأت نفسه.

وهو عائد من صلاة العشاء رأى زوجته وأولاده أمام الدار، وكان الحاج محمد سعيد واقفاً بينهم، بيده شعلة نار ويثرثر. كان يشير بيده يمنة ويسرة، ويضحك. كان محمد سعيد فخوراً بصنيعه فهو الرجل الذي دل زوجة الشيخ أحمد على دار زوجها.

أما الشيخ أحمد فجثا أمام أولاده مضرّجاً بدموعه، وراح يتحسس أنوفهم الواحد تلك الآخر ليتأكد ما إذا كانت لا تزال معقوفة كما كانت، وأن امرأته لم ترَ رجلاً في قفاه كيّة.

قصيدة أهل الكهف

صار الوادي ماضياً، وكذلك الأشعار. سألته قمر إن كان يفكّر ببناء طاحونة في الجبل فقال لا.

تتناثر القرى على الجبل مثل العنكبوت. قيل إن شيخاً وشيخة في قرية بعيدة يملكان راديو وطاحونة. كان الشيخ أحمد يسأل لمن الطاحونة ولمن الراديو وكان الناس في كل مرة يقولون كلاماً جديداً. إلى أن قال محمد سعيد وهو يستعد لدخول المسجد "الراديو للأنثى والطاحونة للذكر".

كان محمد سعيد عارفاً بالتاريخ ويعرف لماذا تحمل بعض القرى أسماء الذكور وبعضها أسماء الإناث. ويعرف أكثر من ذلك: لماذا لا تكون الطاحونة للأنثى. وهنا حيث نزل الشيخ أحمد مع أهله يوجد أكبر كتّاب بين القرى كلها، ولطالما تعلّم الصبية أشياء تفيد وأخرى بلا قيمة على يدي محمد سعيد وآخرين. تحمل هذه القرية اسم يعقوب، وهو اسم يهودي قديم رأى الله وأحبّه الله، ويعرف عنه محمد سعيد الشيء الكثير. يقال إنها أول قرية تضربها السحاب وآخر قرية تغرب عنها الشمس. ولولا الكلب والمقبرة لذكرها الله في القرآن. في وسط القرية مقبرة تتناثر المنازل أعلاها وأسفلها. الناس الذين في الأسفل يتمنون البيوت التي في الأعلى، الناس الذين في

الأعلى يتمنون البيوت التي في الأسفل. فكّر أحمد أول الأمر ما إذا كان قد وجد حلاً للغز الذي زعم ذو القرنين إنه سمعه من الخضر: حول السُّرّة سبعون جرّة، العليا فوق السفلى، السفلى فوق العليا. هل وجد الشيخ أحمد سّرة الخضِر؟ هل سيصل إلى الجرار السبعين؟ ولكن، يسأل نفسه وهو عائد من الصلاة أو ذاهب إليها: كيف للخضر عليه السلام أن يفضي بمثل هذا السر لرجل ينكح البهائم والمؤذنين؟ ثم يتمهّل قليلاً ويسأل نفسه، قبل أن يترك لأحلامه العنان، ما إذا كانت قرية يعقوب على هيئة سرّة. فكّر في صعود الجبل حتى الكهف ليرى كيف تبدو القرية من الأعلى. غير أنّ رجلاً قال في مجلسه إن الرجال الذين بلغوا أعلى الجبال فقدوا خصاهم. لا يريد الشيخ أحمد أن يفقد كيس الذُّريّة، ليس الآن.

فوق المقابر ينام الكلب عنتر، وهو الكلب الوحيد الذي ينبح في ليالي القدر. عنتر لا يموت ولا يترك المقبرة في الليل. إذا نام فإن الموتى ينامون، ولا يتبقى في الخارج سوى الليل. يثق به الموتى كما يثق الغريب بعصاه. لا توجد شواهد على القبور، لا يريد أهل الجبل أن يتذكروا الموتى، ولا أن يلهوا عنترَ عن عمله. وهناك في الطرف الغربي من القرية منزل العَدل، وهو الرجل الذي يدون عقود الزواج وبيع الأراضي ويبقي فانوسه مضاء حتى الفجر. ولديه امرأة اسمها آمنة لا تنام حتى تمسك الفانوس وترفعه حتى يحاذي مؤخرتها وتنظر. ولا يعلم سوى الله إلى ماذا تنظر آمنة

كل ليلة. تطل قرية يعقوب على قرية في الجهة الأخرى من الجبل، اسمها قرية إسحاق. قيل إنها القرية التي نزل إليها أصحاب الكهف لشراء طعامهم بعد أن أفاقوا من موتهم. الشيخ أحمد لا يصدق ذلك ولا يرى بأساً من الإيمان به. الكهف هناك في الأعلى، حيث لا يمكن للإنسان أن يبني منزلاً أو يتوضّأ للصلاة. ثمّة منازل قليلة متناثرة على المنحدرات القريبة من الكهف يسكنها مسنّون طيبون لم يموتوا منذ مئات السنوات، ولا يحب أحد أن ينظر في أعينهم. كان بينهم رجل يقول الشعر ولكن البرق ضربه وقضى عليه. ولم يعد الناس يتذكرون من أيامه سوى ذلك اليوم الذي قال فيه، وكان يوم عيد، إنه ألّف قصيدة يقول مطلعها ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا، هم السلاطين والسادات والأمرا. وبقي ذلك المطلع وحيداً إلى أن تعاون أهل القريتين، إسحاق ويعقوب، على إكمال القصيدة بطلب من الشيخ محسن بن رسّام. كبرت القصيدة، وبقيت تكبر وكان من الممكن أن تكبر إلى ما شاء لها الله وأن تكشف من الأسرار ما لا يمكن احتماله، لولا أن البرق ضرب رجلاً من الذين يعملون على كتابتها، وكان اسمه حمود، فخسرت القصيدة بيتين أو ثلاثة. آنذاك أمر الشيخ بإنهاء القصيدة ببيت يصلي على النبي. وهكذا ختمت القصيدة بذلك البيت الذي يقول: ثم الصلاة على المختار سيدنا، محمد خير من أوفى ومن نذرا. ونجتْ باقي الأرواح من برق الجبل الغاضب. ولم يحدث قط أن كتب أحد من أهل الجبل قصيدة بعد ذلك.

يجلس الشيخ أحمد في ديوانه، ينتصف الليل. قمر تتحدث، تواصل الحديث، حدثته عن كل ما جرى في الوادي منذ غيابه. سألها عن الطريق الذي تشقّه الدولة ولم تجد جواباً. تقافزت الدموع من عينيها بين حكاية وأخرى فقام أحمد واحتضنها، ووعدها بالماضي. قالت إنه لن يعود، قال سنذهب إلى الماضي ونأتي به إلى الصِّبْية. ومن أين سنحصل على الرزق، كانت تسأله وهي ترتجف. وكان يقول لها إن الرزق في كل مكان. ولمّا قالت له إنه بيد الله قال لها "ولكن الله ذرأه في كل مكان وما على العبد سوى أن يصحو باكراً". عاد الليل وانتصف مرّة أخرى، قمر تتحدث، أحمد يصحو باكراً ولا يجد الرزق. عاد الليل مرّات عديدة وانتصف، وكان الشيخ أحمد يتحدث. سألته قمر في ليلةٍ ما إذا كان يرغب بطفل رابع فهز رأسه ليتحاشى السؤال ونكحها بوحشية حتى ظنّت أنه قد قتل كل الأطفال الذين في بطنها. جاء رمضان، صار الوادي أبعد من كل مرّة. الشيخ أحمد يسأل نفسه عن الرّزق. السيدة أثمار، صاحبة الدار، تجيء وتروح. تعلمت قمر من خالتها الكثير وأحبّت الجبل، كانت تقول في كل مرة ترى خالتها إنها أحبّت الجبل. ولكن خالتها نهرتها ونصحتها بأن تقول "أحب القرية" فالجبل جبل وأنت متزوجة.

وكانت تحدثها:

"مرّت على أهلنا ثلاث سنوات لم يروا فيها سوى السحاب البيضاء الفارغة. قالت أمي إنها كانت تصعد إلى السطح فترى القحط في كل مكان وإذا نظرت إلى الوادي فإنها ترى الخضرة والأمطار. صلى الرجال والنساء صلاة الاستسقاء في مصلى بالقرب من أكمَة أهل الكهف، ورشوا الماء المبخّر على حجر المصلى. وعلى الفور جاءت السحاب البيضاء ومكثت في سماء القرية بضعة أيام ثم ولّت. ذهبوا إلى المصلى مراراً، وابتهلوا وخرجت النساء وبكينَ بصوت عالٍ. إلى أن قال الرجال الذين عادوا من الوادي، وكانوا ينزلون إليه للتسوق، إن سوق الوادي عامرة بما لذّ وطاب. قالوا إن المطر ينزل مرة ومرتين في اليوم لأن شيوخ الوادي حبسوا اليهودي الدخيل الذي كان يكتب الشعر. وما إن سمع أهل الجبل بتلك القصة حتى خرجوا من منازلهم يحملون العصي والسيوف باحثين عن شعبان الذي كان يكتب الشعر ويقال إنه من اليهود الذين فرّوا من قريظة. بحثوا عنه كثيراً ولم يجدوه، وقيل إن أهل الوادي تعرّفوا عليه وقتلوه على الفور. انتظر أهلنا أياماً عديدة بعد أن سمعوا الخبر عن مقتل شعبان ولم يحدث شيء. وقيل، والله أعلم، أن سحابا بيضاء هبّت من جهة الجبل وزخّت مطراً خفيفاً فوق بيت شعبان ومضت في سبيلها. راح الناس يسبّحون ويهللون وبعضهم هرب إلى المسجد فلم يسبق للسحاب البيضاء أن أمطرت، فهي

سحاب عجفاء، ولماذا فوق بيت شعبان. بعد ذلك توقف الناس عن الجري وراء شعبان وأرسلوا بناتهم إلى الوادي للبحث عن الذرة، وكانت أمك أجملهن على الإطلاق. رآها الحاج نُعمان غالب وهو يناولها الذرة فسألها عن اسمها وهو يبتسم مثل الأبله. أخبرته عن اسمها ولم تخبره عن اسم والدها. وبعد شهر جاء الحاج نعمان إلى الجبل ومعه رجال آخرون وخطب أمك لابنه مهيوب".

لا تعرف قمر هذه الحكايات التي يعرفها كل أهلها في الجبل. ولم تفكّر قط بسؤال أمها عن ما الذي جاء بها من الجبل لتكون زوجة صالحة لرجل من أهل الوادي. تواصل أثمار بنت محمد الحديث إلى ابنة أختها، امرأتان متقاربتان في العمر.

"ولدتُ قبل زواج أمك بأشهر" قالت أثمار.

أخبرتها عن زوجها الذي قتلته الجن وهو يحرس القات، وذكرت لها قصصاً لا يمكن حصرها عن البشر الذين ضربهم البرق أو سممتهم العفاريت. ولما رأت الهلع في عيني قمر حدثتها عن الرجال في قرية إسحاق. وفي الأيام اللاحقة كانت تحدثها عن الشيخ بن رسام الذي يملك ثلاث زوجات، وما يحكى عن أنه لا يضاجعهن ولكنه يراكضهن. غير أن زوجة الشيخ أحمد فزِعت ووضعت يدها على صدرها كأننها تتحسس شيئاً. فالكلمة تلك، المراكضة، تعني أشياء مروعة في الوادي، بينما أرادت

السيدة أثمار بنت محمد أن تقول شيئاً آخر أقل ترويعاً. أرادت أن تجهّز ابنة أختها لتكون امرأة من أهل الجبل، امرأة تفهم الحقيقة كما هي لا تلك التي تقال في العلن.

صار الناس يتوافدون على ديوان الشيخ أحمد وقد تسامعوا به وبما تفعله تلك القطرة التي قيل إنها اسم الله الأعظم، وبقي ذلك القول في الآذان لوقت ما. حتى إن الشيخ محسن بن رسّام، شيخ قرية إسحاق وما حولها، أرسل أحد أبنائه وكان شاباً متصوّفاً لحضور مجلس الشيخ أحمد ولمعرفة ما يقوله الرجل. ولما عاد سأله والده إن كان قد رأى قطرة الحبر فقال الشاب إن الشيخ أحمد لم يتحدث عنها قط، وإنما تحدث عن الخيالة المسلمين الذين كانوا يخرجون من يثرب ويخطفون التجّار.

"يخطفون التجّار؟" سأله والده منفعلاً، وكان قد درس السيرة النبوية على أيدي شيوخ متصوفين. لم يجد الشاب من جواب، وبقي يتلفت مثل الأبله، ثم غمغم: لا أدري، ولكنهم خطفوا الكثيرين منهم وأحرقوا خيامهم. بقي الشيخ بن رسّام في مكانه يقلّب ذلك الكلام يمنة ويسرة، وشعر بالخوف لأول مرّة. ثم، دون أن ينهر ولده أو يثني عليه، ذهب إلى الكنيف وتبوّل واقفاً وعاد وهو يهمهم "التجار هم الفجّار". ولو أنه عاش في ذلك الزمن، زمن الرسول، لكان قد أرسل ابنه الأهطل ليخطف الكثير منهم.

أصبح الشاب يتردد على منزل الشيخ أحمد، وصار أحمد شيخاً فوق كل الشيوخ ولكنه كان كيّساً لدرجة أنه كان يقف احتراماً لهم ويقبل رؤوسهم ويمجد أبناءهم. قال لنجل الشيخ محسن رسّام، عندما زاره لأول مرّة، إنه سمع عن والده الكثير. راح يحدثه عن الأشياء العبقرية والنادرة التي فعلها أبوه في صباه، فضج الديوان بالحمد والثناء. وفي المساء كان الشيخ محسن رسّام يتجول في منزله منتشياً بما سمعه، ولم ينم لفرط انتشائه، فياله من مجد ويا لها من نبالة صنعها لنفسه. وعندما عاتبته إحدى زوجاته لأنه لم يخبرها عن كل ذلك من قبل فقال إنه لا يهتم لمجده الشخصي. ثم صارحها، ليحتوي سخطها، قائلاً إنه لا يعرف عن تلك القصص شيئاً. وكانت تنظر في عينيه منتشية وتردد: ولكنها صحيحة. أما الشيخ بن رسّام فنظر إلى عينيها وكان سعيداً على نحو يصعب وصفه، ولم يجد من الكلمات ما يكفي ليملأ تلك الليلة.

توافد الرجال على ديوان الشيخ أحمد والنساء على ديوان زوجته. مع مرور الأيام اتفق مع الرجال على أن يفتح ديوانه يوم الجمعة فقط، وقال إنه سينشغل بالعبادة والقراءة سائر الأيام. لم يجرؤ أحد على سؤاله عن الأشياء التي يقرأها، ولكنهم كانوا قد سمعوا الكثير عن قطرة الحبر. وكلما غاب عنهم الشيخ أحمد أضافوا قصصاً جديدة إلى ما سمعوه عنه من قبل، وصارت قطرة الحبر تتحكم بخيالهم ولياليهم. ثم صار لا يخرج إلى الصلاة في المسجد سوى يوم الجمعة. وقال الناس إنه صار من أهل

الخطوة، وهم قوم صالحون يبلغون الكعبة بخطوة واحدة أو خطوتين. أحاطه أهل الجبل بالغموض والمهابة، وضربت الأمثال باسمه، وفي القرى القريبة رويت عنه القصائد. لم تفلح محاولات الشيخ أحمد في نفي علاقته بتلك القصائد والأمثال وإن كان قد وجد بعضها عظيماً، مثل تلك القصيدة التي تقول "كذا العرش والكرسي في طي قبضتي" على الرغم من أنه كان يعرف اسم مؤلفها.

استقرت روحه، وصار عندما يخرج لصلاة الجمعة من وقت لآخر يتبادل نظرات ذات مغزى مع الكلب عنتر. أحمد يجلس الآن في ديوانه، مثل كل ليلة، وقد وضع قطرة الحبر على ورقته وصار يراقب كل شيء، حتى المواشي. وصار الرجال ينكحون زوجاتهم في الظلام ليتحاشوا عيني الشيخ أحمد. عدا محمد سعيد الذي قال لزوجته إنه يفضل أن يراه الشيخ أحمد وهو ينكحها عن أن تنجب طفلاً أحول إن جامعها في الظلام. ووجدت زوجته متعة غامضة في تخيل ذلك الأمر، وشعرت بالأنس والوحشة معاً.

تركت قمر ديوانها مفتوحاً للزائرات، وكانت تلك رغبة زوجها أيضاً. تزورها النسوة وتجري الأحاديث حول كل شيء، وفي الليل تنقل الأخبار لزوجها. الحقيقة أن الشيخ أحمد أحب ما سمعه عن نفسه خصوصاً في حكايات النسوة. أحب حقيقة أنه صار

قديراً، كما أحب الخوف في عيون الناس. وصار يقضي وقتاً على سطح منزله في المساء يطالع النجوم محاولاً التقاط أي شيء منها. ولكنه، رغم محاولاته، لم يلتقط شيئاً يذكر. يقع ديوان زوجته في الدور الثاني تحت ديوانه تماماً. ينزل هو من السطح خائباً وتصعد هي منتشية بما سمعته. تأتي إليه بالقصص والأخبار وسرعان ما ينسى خذلان النجوم له ويصدق ما جاءت به قمر. لم يسبق أن فتن الشيخ بنفسه كتلك الأيام ولم تكن تلك الحكايات العظيمة المختلقة سبب فتنته بل لأنها ترويها النساء. لقمر شفتان قلّ أن يجود بمثلهما الزمن. لم يتنبه الشيخ أحمد لتلك الحقيقة سوى في الجبل. صار يستمع لزوجته التي أصبحت بين يوم وليلة أعظم الثرثرات، وكانت أحياناً تتوقف عن الكلام وتبكي لأنه ليس بمقدورها تذكر كل القصص. وكان ذلك أمر يؤلمها كل الإيلام، فاستعانت بغزلان التي راحت تتذكر كل ما يقال.

لم تغب الحرب عن خيال الشيخ أحمد، كانت دائماً في مكان ما في أرض اليمن. وكان يسأل نفسه ما إذا كان عليه أن يذهب لملاقاتها مثلما كان يفعل، ثم يعدل عن تلك الفكرة. هو الآن في مأمن من الحرب، وكذلك أبناؤه. تراوده قصة ابن نوح الذي فرّ من قدر الله إلى الجبل ولكن الموجة نالت منه في آخر الأمر. يصارع نفسه حين يهجس عن الحرب، فهي قدر الله وهي ليست كذلك. كان قد توصل، وهو في الوادي، إلى القول إن الحروب الصغيرة تراكم نفسها حتى تصير حرباً كبيرة تصيب كل الناس

وتلتهم كل حرب سواها. ذلك هو الجانب المشرق في الحروب الكبيرة. ثم وجد في كتبه وفي ماضيه من يقول له إنها لعبة الكواكب والنجوم. عاد مراراً إلى نفسه وجلس ليقسم الحرب: هذه لعبة النجوم، هذه قدر الله، وتلك حربٌ بشرية خالصة. لم يكن قط قادراً على أن يمسك بمعنى واحد للحرب، ولا أن يبتكر لها شخصية واحدة. فهي تستحق الانتظار إن كانت ستقضي على الحروب الصغيرة، ولا بد من الهرب منها إن كانت واحدة من ألعاب النجوم والكواكب. وإن كانت من أقدار الله، يسأل نفسه؟ قال إنه سيهرب من قدر الله إلى أقدار الله.

تمر الليالي في الجبل بطيئة، وها هي الحرب الكبرى صار اسمها الثورة. انتظر أن تضع حداً لنفسها وأن تجلب معها الأمان، ولم يحدث من ذلك شيء. وصلت الراديوهات إلى الجبل حتى صار لكل قرية راديو. واصلت الراديوهات الحديث عن الحرب، وعن سلاح السعوديين والمصريين في المعركة. أما هو فحاول التجسس عليها من خلال قطرة الحبر. لقد رآها. رأى الحرب الكبرى، رأى الثورة، ورأى الجيوش وهي تسوق الحرب أمامها. كانت مبجلة وعظيمة، وكانت تضرب في كل مكان مثل جمل هائج. لم يسبق له أن رآها على تلك الهيئة من قبل، كأنها كوكب درّي. ولوهلة أحس بأنه أهدر عمره في الوادي. حتى إنه أمسك لسانه في آخر لحظة فقد كاد يحدث زوجته عمّا رآه.

ديون المسافر

"إذا غيرت الشمس طريقها في سلّم الأبراج تقع الحرب أولاً، ثم تهبّ الرياح" قال غداة وصوله إلى الجبل، وكان يوماً عاصفاً أصاب الرعيان بالذعر.

لكن الشمس لم تغير طريقها في قابل الأيام. وبقيت الروح تهبّ، وجلس أحمد في ديوانه ليرى.

بعد انقضاء ما يدنو من العام على التحاق قمر بزوجها، وفي نهار غريب بعض الشيء، أخذتها زوجة محمد سعيد جانباً وساررتها. كانت في الأربعينات من عمرها ولم يسبق لها أن رأت كلباً وكلبة في ساعة جِماع. طلبت من قمر أن تسأل الشيخ أحمد ما إذا كان قادراً على أن يرى الجن كما يرى البشر فقالت قمر على الفور نعم. قالت السيدة إنها تريد من الشيخ أحمد أن يداويها، فربما كانت مسكونة. سحبت قمر يدها من يد ضيفتها خشية أن تنقل إليها شيئاً، وغمغمت "سأحدثه بالأمر". ولما رأت تلك السيدة الحيرة والتوجس في عيني قمر قالت إنها ستدفع ثمن العلاج وستكون سخية معها. كانت تلك هي المرة الأولى التي استطاعت فيها قمر تخيّل باب للرزق في ذلك الجبل المهيب حيث لا يأتي الرزق سوى في الظلام.

تردد الشيخ أحمد إلى حدّ ما، فهو الغريب الذي ألقته الأقدار من قرية إلى أخرى وأودت به معارفه وقدراته. وللتو نهب أهل الوادي ماله وداره. وهذه امرأة رجل مبجّل في القرية. كما لم يسبق للشيخ أحمد أن رأى الجن أو سمع لهم حسّاً. سمع في الوادي عن الرجل الذي فتح كتاب شمس المعارف فأظلمت الدنيا في عينيه وانقلب داره كما ينقلب الإناء. عدا تلك القصة فإن الشيخ أحمد لم يسمع شيئاً يستحق الذكر، ولم يعرف قط سبيلاً يؤدي إلى الجن وإلا لكان سلكه ولو مرّة.

بيد أن زوجته كانت متحمّسة لباب الرزق ذاك.

لهجت بالحلفان وتلعثمت، كانت تقول إنها أخذت من زائرتها عهداً على أن لا تفشي السر لأحد. لم يعر الشيخ أحمد حلفانها اهتماماً، وعلى العكس فقد تمنى لو أن زوجة محمد سعيد تفشي السر إلى نساء أخريات. كان قد أدرك ببصيرته أن قصص الرجال تدور فقط بين الرجال وأن قصص النساء تدور فقط بين النساء، وأن الخطر يكمن في وجود الرجال المخنّثين، فهم الذين ينقلون الأسرار جيئة وذهاباً بين الطرفين. استراح قليلاً لهذا الاستنتاج فهو لم ير مخنثاً في القرية منذ وصوله، وقد سمع أن القرى الأخرى ترسل المخنثين لرعي المواشي في المنحدرات والآكام حتى ينال منهم البرق والسباع. وأن المخنثين يستقبلون تلك الأقدار ببسالة متناهية. الحمد لله، فكّر أحمد

بصوت دفين، هذا جبل بلا مخنّثين، هذا جبل آمن. وتمنى لو أن النساء ينجبن المخنثين بين الجبال حتى لا يعرفوا الطريق إلى القرية. ثم صرف تلك الأمنية من رأسه ونهر نفسه قائلاً ما لي وللمخنثين، ما لي ولهم.

في اليوم التالي، قبل أن ينتصف النهار، كانت زوجة محمد سعيد تجلس بين يدي الشيخ أحمد عارية الصدر إلى ما تحت نهديها، وكان ديوان الشيخ قد آل إلى سحابة من بخور العود المذهل. وكلما هبطت السحابة ألقى أحمد بشظية على الجمر. حصل على شظايا البخور تلك من راع قال إنه عثر عليها في الجبل. كان الشيخ أحمد يغمس يده في إناء ممتلئ بالماء الفاتر المبخّر ثم يمسح على عنقها وصدرها. أخرج جنبيته وجعل يمررها بين نهديها وعلى عنقها ويقرأ المعوذتين بصوت دافئ، ثم يضع الجنبية بين نهديها ويطلب منها أن تضمهما. كانت تفعل، وكان يبتهل من أعماقه ويلهج بالحمد والثناء وهي لا تكاد ترى وجهه. "اخرج منها يا ملعون" كان الصوت الدافئ المؤمن يصلها. ولما أحس إنها توترت وارتجفت ضرب جبهتها بخاتم العقيق الذي يضعه على إصبعه منذ عشرة أعوام.

ما إن غادرت المرأة منزل الشيخ أحمد حتى كانت قد برئت من كل الآلام والمخاوف وتمنّت لو أن الدنيا لا تزول، لو أنّ تلك القرية السعيدة تبقى في مكانها إلى الأبد، ولو أن كل أحجار الأرض صارت عقيقاً.

أرسلت تقوى، صاحبة الدكان الوحيد، ولدها إلى منزل الشيخ أحمد. وقف الولد أمام الدار، وكان قد فقد سنّين في الأيام الماضية، وصاح بأعلى صوته فخرج الابن الأكبر للشيخ أحمد وتناول الرسالة ونهره قائلاً إن كنتَ أصمّ فنحن لسنا كذلك. ولما أدرك الإبن أنها رسالة على ورقة عاد راكضاً إلى أمّه وكاد يتعثر ويسقط على وجهه. هبّت قمر واستلمت الرسالة من ولدها وصعدت راكضة إلى ديوان الشيخ أحمد وهي تلهث وقلبها يجري. لم يسبق للشيخ أحمد أن استلم رسالة مكتوبة حتى الآن. وقال الولد الذي أوصلها إنها من وادي الخضر. كان أحمد آنذاك يتمشى بين المدرجات الزراعية صحبة جماعة من الرجال المبجّلين. لحظة أن لمست قمر الرسالة كان رجل يقول للشيخ أحمد "الخير كثير والمواشي مجنونة".

أمطرت سماء ذلك اليوم ونزل البرَد، وكاد راعٍ بين الوادي والجبل أن يفقد إحدى شياهه. ولم يجد عنتر من مأوى فجلس في وسط المقبرة وجعل يتأمل بيوت أهل القرية حتى جفت السحاب. كانت تمطر بغزارة، وكانت عينا عنتر قد توقفتا لبرهة على

نوافذ بيت صغير في أعلى القرية حيث جلست فتاة سمراء على ركبتيها وتوسلت باكية ولكن أحداً لم يلق لها بالاً. ترك الشيخ أحمد السماء تمطر قليلاً ريثما تغطي الأمزان الجزء الذي يراه من وادي الخضر. لمّا غاب وادي الخضر خلف أمزان المطر فتح الرسالة.

"السلام عليكم يا أحمد، إن سألت عنّي فأنا بخير ونسأل إلا عن صحتكم. بالأمس عاد المُحنشي بالثعابين إلى دارك، وذهب. لقد مضى وقتٌ على غيابك ويبدو أنك لن تعود إلى الوادي فقد أصبحت شيطاناً. صار ذو القرنين شيخاً، وهو الآن يملك البئر والطاحونة. كما حكم الشيخ طه وأصحابه أن لا يسكن أحد في دارك، ثم أشاعوا أن الجنّ باتت تسكنها. دخلت دارك قبل أيام ليلاً ومما لاحظته في الظلام أنهم سرقوا كل شيء حتى حجر الموقد. أما كتبك فلم يبق منها شيء. لقد سرقوا كتبك وأظنهم فعلوا ذلك ليحرقوها. سمعت أن عيال إبراهيم بن عقيل وضعوا أحد كتبك على قبر عمّهم ليجلبوا عليه اللعنة ولكن أبناءه هبوا وأحرقوا الكتاب وذروا الرماد على قبر مريم الشاعرة. أصدقك القول إني عندما رأيت الوحشة الرهيبة في دارك خشيت أن يكون الجن قد سكنوه، وعلى كل حال فقد قرأت آية الكرسي والمعوذتين من باب الاحتياط. أنت تعرف رأيي في الجن وقد أخبرتك سابقاً أني كنتُ جنيّاً ولم يسبق لي أن رأيت جنياً غيري. في الحقيقة إن كان هناك جنّ بالفعل فإنهم لن يكترثوا لهذه السور

الصغيرة، وإذا كان الله قد سمح لهم بممارسة الشرور في كل الدنيا فإن دارك من هذه الدنيا. الذرة التي في المدفن لا تزال في مكانها ولكن رائحتها قد تغيّرت، ربما نزل عليها شيء من ماء المطر. سأعود لاحقاً لأرى، ولكنهم إن عرفوا فقد يطردونني من الوادي. أنا مثلك، كلانا عيال الخضر عليه السلام، ولم نعد ندري أين هي بلادنا التي جئنا منها. مواشيك يا أخ أحمد ذهبت فيما ذهب. لكن أتعرف؟ الأخبار التي تصلنا عنك كل يوم، وقد فتح الله عليك فتوح العارفين، ستدفعهم لإعادة كل شيء سرقوه. ويوماً ما ستعود إلى وادي الخضر أنت وأهلك وسنخرج لاستقبالكم عند شجرة الغريب كما استُقبل المرسلون. بالأمس كنت أتحدث إلى الناس في السوق وأقول لهم أتعرفون ما الذي يمكن أن يحل بالوادي إن انتهكتم حرمة هذا الولي؟ وكنت قد سمعت بعض الرجال القادمين من الجبل يصفونك بالولي. إن ذهب لقب الشيخ إلى ذي القرنين فأنت قد صرتَ ولياً، ومن آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب كما قال الله. لو كنتَ الآن هنا كنا سنضحك عند هذه الكلمة. أدري أن هذه السفاسف، كما كانت تصفها، لم تعد تهمك وأنت في مقامك. أنا أيضاً لم أعد أطمح سوى لاستعادة اسمي القديم محسن والخلاص من زط هذا الذي إن أبدلت حرفاً منه بآخر فستكون النتيجة فاحشة. أظنهم أعطوني هذا الاسم ليضعوا حداً بيني وبينهم. فقد سمعتُ أنهم عملوا الشيء ذاته مع جمّال جاء به الخضر، وكان بهي الطلعة ويحب الكلام مع النساء.

أسموه القنتار، وسارت الكلمة على كل الألسن حتى اشمأزت منه كل المُسنات في الوادي. ولما أدرك الرجل فداحة ما حل به هجر الوادي ثم مات في الطريق ولكن جَمَله عاد إليهم.

بعد هذه السفاسف سأحدثك عمّا يهمك ودفعني لكتابة هذه الرسالة. الطريق الذي تشقّه الدولة وصل الآن إلى المقهى ومرّ من أمامه. أصبح مقهى زُط مقهى للعمّال الذين يشقون الطريق. أخاف من الغنى يا أخ أحمد، الغنى يجلب الخوف. المقهى ممتلئ بالناس حتى منتصف الليل وأخشى أن أفقد ضحكتي العالية بداعي الوقار. وأكثر ما يخيفني هو أن بعض الناس صاروا ينادونني بالشيخ مُحسن. إذا استقروا على هذا الاسم فإن مصيري سيكون مثل مصيرك. قد لا يطول الزمن حتى نرى رجال الثورة يضربوننا كما كان رجال الإمام يفعلون. لكنهم سيلعنوننا بطريقة مختلفة لأنهم متعلمون. أنا زُط، وأريد أن أزطّ ما بقي من حياتي بهذه الطريقة. هل تقدر الثورة على إعادة اسمي الحقيقي؟ قالوا لي إن الثورة تشق هذا الطريق لأنها تريد الوصول إلى عدن، وأننا جميعاً سنذهب إلى هناك لنطرد الإنجليز. كلامهم أشعل الحماسة في روحي وجعلني انتظر اليوم الذي سنخرج فيه بالطاسات والمرافع لدحر الإنجليز. كنتَ أنت تردد مثل هذه الظنون. غير أنهم يعملون ببطء شديد ما جعلني أفقد حماسي. ربما سيكون الإنجليز قد تمكنوا من الفرار حين نصل إليهم. أريد أن أدخل عدن

منتصراً ضد أيّ كان، هناك سأصرخ بصوت تسمعه السماوات والأرض: اسمي محسسسسسسن. هذه حرب لا غبار عليها يا أحمد، وهم يقولون إننا ربما نكون أول شعب في الدنيا دحر الإنجليز. سنكون الشعب الذي دحر عيال عيسى وعيال محمّد برمية واحدة. الحقيقة أن الطريق ما إن وصل إلى الوادي حتى سقط العمّال في النعاس، ولمّا علم الشيخ طه بالأمر خاف على نفسه وأمر بقطع كل أشجار العَنْب. لقد انهار الجدار الذي كان يحمي الوادي وصرنا عرضة لكل شيء، للصوص من الشمال والإنجليز من الجنوب. لا أشعر بالخوف من كل هذا بل من الغموض الذي حولنا. أريد أيضاً أن أقول لك أني اشتريت راديو، وهو ينقل الأخبار بحذر شديد ويكرر الخبر نفسه لأيام. وغالباً ما يقول كلاماً لا يتطابق مع ما يقوله المسافرون وهذا أمر مزعج لأنه أشبه بالكذب. المسافر لا يكذب. لقد قررت أن أبقيه صامتاً أغلب أوقات النهار. الحقيقة أن المسافرين يقولون كل شيء. فمثلاً سمعنا في الأيام الماضية أن مصر قررت أن تهزم السعودية في اليمن، وسمعت أن الثوار يعملون أحياناً مع مصر وأحياناً مع السعودية. فمثلاً يقول الراديو: انهزم الثوار، ويعدد الأماكن. في اليوم التالي سيقول انتصر الثوار ويعدد الوقائع. ما المطلوب منّي؟ أن أنتظر حتى آخر النهار وأقوم بحساب الهزائم والانتصارات لأعرف لمن الغلبة؟ الشيء نفسه يحدث منذ ثلاثة أشهر وسيحدث لاحقاً وسيختلط دخان المعارك. إذا لم يكن الراديو قادراً على

أن يحسم الحرب لصالح طرف واحد فإنه سيصبح واحدة من السفاسف الكبيرة التي نعرفها، مثل الجن والأشعار. نسيت أن أقول لك أن الرئيس جمال عبد الناصر سيصل إلى تعز في الأيام القادمة وسنخرج لاستقباله. يقال إنه سيلقي خطاباً لم يسمع اليمنيون مثله من قبل. إذا أردت نصيحتي فلا تنزل مع الذين سينزلون من الجبل. ستأتي الخلائق كلها ولن يتجرأ أحد على أذيتك في حضور الرئيس عبد الناصر الذي أخاف العالمين. ولكن كما قلتُ لك هي نصيحة من صديق وأخ، فأكثر ما أخشاه هو أن لا يكون الرئيس جمال عبد الناصر بكل تلك المهابة. أمس، أو قبل يومين، رأيته في المنام قادماً إلى المقهى بصحبة الخضر عليه السلام. الخضر حاد يميناً ودخل الوادي، وواصل عبد الناصر طريقه حتى دخل المقهى. قدمت له القهوة في الفنجان فسألني إن كانت لي أمنية، قلتُ له إني أريد أن أطير ساعة واحدة فوق السعودية. فسألني وهو يبتسم لماذا تريد أن تطير فوق السعودية وليس فوق إسرائيل فأجبته إنني إذا رأيت السعودية من الأعلى فسوف أفهم أشياء كثيرة، أما إذا طرتُ فوق إسرائيل فلن أفهم شيئاً. ضحك الرئيس جمال عبد الناصر بصوت مجلجل حتى أيقظني من منامي.

كما أخبرتك أنا بخير وما عليك سوى أن تكون بخير. وأرجو أن تخبرني في رسالتك لماذا أنت بخير.

نسيت أن أقول لك شيئاً آخر.

وجدت في دارك عدداً كبيراً من السفن الورقية، استطعت أن أراها بما تيسر لي من ضوء الليل. أخذت بعضها وعلّقتها بخيوط على سقف المقهى، وقد أثنى عليها كل المسافرين عدا رجل واحد قال إنها تذكّره بديونه".

آلام الشيخ

تدافعت الأحلام في رأس الشيخ أحمد طيلة الليل فاستيقظ من نومه وقد نسيها جميعها.

كان كل شيء ساكناً حتى قمر. وكانت قمر ساكنة عدا حلم صغير يتقافز بين بؤبؤيها.

تأمل الشيخ وجه زوجته على ضوء الفانوس وبدت له شبيهة بشخص ما، ولم يدر ما إذا كان ذلك الشخص رجلاً أم امرأة. هبّ من مرقده وتوضّأ ثم صلى ركعتين. في السجدة الأخيرة تمنى أشياء كثيرة ودعا لأمّه. أراد أن يدعو لزوجته فذكر اسم أمه، ولم يسبق له أن دعا لأمه ولا لزوجته. كان يقول إنه يكِل أمر النساء للحي الذي لا يموت. أنهى صلاته وقام يتحسس زجاجة الحبر. في الكوّة الصغيرة، في الطرف الغربي من الديوان، سمح لقطرة كبيرة من الحبر أن تتجمع وتسيل من أطرافها. تسارعت أنفاسه وضاق صدره فهو سيرى أشياء لا ينبغي له أن يراها. في الخارج كانت كلاب في أعلى القرية تنبح كلاباً في أسفلها، وكان الكلب العنتر باسطاً ذراعية فوق مقبرة مستنكراً ما وصلت إليه كلاب تلك الأيام من خفة وحماقة.

لهج الشيخ أحمد باسم أمّه، ثم باسم أبيه، وأغمض عينيه وانتظر هديراً ما. فتح عينيه فرأى. رأى أمه، كانت تفتح باب الدار وتنادي عليه بصوت واطئ. خرج الطفل أحمد من مخبئه واقترب منها. سعت إليه ومسحت على رأسه وخده وسألته إن كان لا يزال يحس بالألم فهزّ رأسه يمنة ويسرة. عادت أمّه إلى الدار وأغلقت الباب، وعاد الطفل إلى مخبئه. بقي الشيخ أحمد يحدّق في القطرة، في الأم والطفل، إلى أن أغلقت أمامه كل الأبواب وحلّ فيها الظلام. قام وسكب قطرة أخرى وابتهل ولكن شيئاً لم يحدث. راح يتمشى في ديوانه ومن وقت لآخر ينظر إلى زوجته النائمة ويسأل نفسه ما إذا كانت تشبه أمّه، أم تشبه أباه. جلس ليقرأ القرآن واحتار أي السور يقرأ ثم دخل إلى سورة الواقعة بلا مقدمات فتاه في منتصفها. لا يمكن للمرء أن يدخل إلى الواقعة دون مقدمات، فهي سورة صنعت للشدة وللأهوال. انتظر حتى صلاة الفجر، ثم غادر داره إلى المسجد. في الطريق لم يسمع لعنتر حسّاً، لفحه هواء الفجر لأول مرّة منذ زمن. لم يجد في المسجد من أحد فصلى بمفرده. ثم جلس للدعاء فنسي كل الأدعية التي فكّر بها في طريقه. انتظر حتى طلوع الشمس ثم صلى ركعتي الشروق وخرج وهو يفكّر "ترى ما هي الغنيمة التي دفعت الرماة لترك أماكنهم والنزول من جبل أحد". وبالرغم من أنه كان يقول لنفسه إن الدنيا ستبقى في يديه ولن تبلغ قلبه، ومهما جرت الأقدار فإن المدر والذهب سيتساويان في عينيه، إلا أن الدنيا أخافته ذلك

الصباح كما لم تفعل من قبل. وتمنى لو أن بمقدوره أن يدحرجها من أعلى الجبل ويقضي عليها.

في طريقه إلى داره التقى الحطّابات فلم يلتفتَ إليه، وألقى السلام على مجموعة من النساء كنّ ذاهبات إلى نبع بين القريتين. تضاحكت النسوة لمجرد أن أبصرن قامته، واصطدمت الفتاة بالأخرى، وتجاوزنه مسرعات. في الطريق قالت إحداهن أن والدها طلب منهنّ أن يذهبن إلى الفراش مستورات، وقالت الأخرى أن زوجها لم يعد يضاجعها سوى في الظلام. سرى بين الناس أن الشيخ أحمد يرى كل شيء، وفكّر الناس أول الأمر بنسائهم، ولما تأكدوا أنهن أصبحت مستورات بدأوا يفكرون بأنفسهم لكنهم لم يجدوا ما يخشون عليه. جلسوا في أماكنهم، وجلس الرجل قبالة الرجل، واحتشدوا في السر لينظروا ما الذي عليهم فعله ولم يجدوا من شيء يقولونه. عدا عبد الواحد الرضي فقد فعل شيئاً يستحق الذكر وتخلص من ذنبه. يعيش عبد الواحد وسط القرية في بيت بناه بنفسه وترفض أي امرأة أن تكون له زوجة. لم يجد ما يقوله حين كانوا يسألونه عن سبب هروب زوجته في الليلة الكبيرة، ولا قال أهل زوجته شيئاً حيال تلك الأسئلة. غير أن طليقته الحمقاء أخطأت يوماً ما أمام صاحبة الدكان، وهي عجوز تعرف كيف تحصل على الأخبار وكان اسمها تقوى.

قالت لها العجوز وهي تناولها شيئاً وتماطلها:

"سمعتُ أنه نكحك من الخلف في تلك الليلة"

فأنكرت الزوجة، وذكرت اسم الله واسماً آخر.

أصرت العجوز على كلامها قائلة:

"هذا حقّه، ينكحك في أي مكان يريد".

ولكن الزوجة نهرتها قائلة إن شيئاً من ذلك لم يحدث، وأن مثل ذلك الفعل ليس من حقه. قامت العجوز إليها وجلست إلى جوارها وساررتها بطمأنينة تفلق الصخر :

"لا تصدقي ما تقوله النساء يا ابنتي، كلهن دجّالات. رجال هذه القرية جبناء ولا يأتون سوى من الخلف إلى أن يشعروا بالأمان. عند ذلك يأتون المرأة من قدّام. أعرف رجالاً ماتوا ولم يشعروا بالأمان قط. ألم تسمعي عن هذا من قبل؟ يا لك من ساذجة".

ثم قالت وهي تذرعها بنظراتها وتشير بكفها:

"ينكحك هنا وهنا وهنا كما يشاء. هذه الأشياء لم يخلقها الله هباء".

ترددت المرأة ثم كشفت سر تلك الليلة الرهيبة أمام عجوز حاذقة وملعونة. فقالت العجوز وهي تضع يدها على فمها "يا حي يا قيوم". وكانت المرأة تنظر إليها وشفتها

السفلى مدلاة آملة أن تكون العجوز قد غفرت لها، ولكن الحمقى لا يحصلون قط على الغفران.

استطاع عبد الواحد الرضي أن يتدبّر أمره على طريقته كجبلي قريب من الله. أحبّته أتان سوداء كان ينكحها في الليالي التي بلا قمر خشية أن تتعرّف على ملامحه. ولكن الأتان تعرّفت عليه وحفظت اسمه، وكانت إذا رأته بين الناس تذهب إليه وتلحس قدميه. وكان الناس يتهامسون مما دفعه لقضاء أغلب وقته في مدرجات الجبل بين القريتين. وقيل أن أرملة اسمها سلوى غمغمت أمام صاحبة الدكان "الدنيا فانية وكلنا حمير الرضي" فهزّت العجوز رأسها وقالت "يا حي يا قيوم" وفكّرت بأشياء مروّعة. كانت الأرملة سلوى امرأة عظيمة تحط الطيور على ردفيها إذا ما وقفت أمام بيتها وعاينت المدى. وبالأمس القريب كان عبد الواحد الرضي يجلس على ربوة بين القريتين، كان يتأمل الدنيا على طريقته فرأته الأتان وهبّت إليه. قام وتحرّك من مكانه واستدرج الأتان التي كانت في ساعة شبق إلى أن تأكد أنه قد غاب عن العيون فدفعها إلى المنحدر وتخلص من ذنبه. يرى الشيخ أحمد كل شيء، ومن الجيد أن يتخلص المساكين من ذنوبهم. ما إن استقر جسد الأتان في الهاوية حتى راح عبد الواحد ينظر في الأجواء كما لو أنه يبحث عن عيني الشيخ أحمد، وشعر بالرضا من نفسه ومن

الشيخ ومن هذا العالم الذي منحه وحرمه. ثم أمسك بحجر وألقاه في السماء حتى وصل إلى قعر الشمس، وتمنى لو أن ذلك القرص اللاهب والفضولي يتركه في حاله.

وفي وادي الخضر عاد فلاح لعين إلى بيته في الليل فرأى زوجته نائمة، كانت الغرفة مضاءة والزوجة نصف عارية. ارتعدت أنامل الرجل حين رأى مؤخرة زوجته طافية، وخرجت رغوة كثيفة من حلقه، وعلى الفور أمسك بالفانوس وضرب به عرض الحائط آملا أن يكون قد أصاب الشيخ أحمد في عينيه، ثم جلس يزمجر حتى مطلع الفجر. غادر منزله على ضوء الفجر الباهت وهو يقسم أمام نفسه أن يجعل من دماء الشيخ أحمد دماء حنش. مضى في طريقه وكان يزمجر ولا يرد السلام إلى أن وصل إلى مكان ما واختفى أثره، ولا تزال زوجته نائمة منذ تلك الليلة.

وفي الوادي هدأت أرواح الرجال بعد أن تأكدوا أن نساءهم أصبحن مستورات. جلسوا مع أنفسهم وتساءلوا ما الذي عليهم فعله والشيخ أحمد يرى كل شيء ثم توقفوا عن الحديث عنه وخرجوا من أرضه عدا ذي القرنين الذي سخر من كل ذلك قائلاً إن الشيطان نفسه لا يستطيع أن يرى كل شيء. واصل رجال الجبل النزول إلى الوادي محمّلين بالقات وبالأخبار المجيدة عن شيخ الجبل أحمد، وكانوا يعودون وقد ملأ النصر حناجرهم. لقد منحهم الزمان تلك الفرصة فلم يعودوا خائفين من تندر أهل

الوادي على لهجتهم، ولا من معايرتهم بالجدّين يعقوب وإسحاق. أمطروهم بأخبار الشيخ أحمد بلا رحمة حتى تمنى أهل الوادي لو أن الحرب تحصل في الغد وتقلب كل شيء رأساً على عقب. ولكن الحرب لن تحدث قريباً وسيواصل أهل الجبل سحقهم بأخبار الشيخ الجليل أحمد الذي يرى نساءهم النائمات. تواطؤا على القول إن الشيخ أحمد أعفى نساء الجبال من عينيه ورجاله من غضبه.

تتسلل النساء إلى دار الشيخ أحمد للعلاج. جاءت صاحبة الدكّان بنفسها، لم تكن تتوجع من شيء ولكنها تحس بأنها مريضة في مكان ما من روحها وأن الليل ينهكها. فقد توفي زوجها قبل عامين بعد أن سعل لشهور عديدة، وبقيت هي لا تسعل ولا تنام. تقترب من الستين من عمرها ولم تفكّر قط في الحج لأنها تخاف من البحر. جلست أمام الشيخ أحمد، تحدث إليها بوقار فقد سمع عنها الكثير وخاطبها بالحاجّة. قالت له، كما تقول لكل الناس "النار ولا الحج". ولما سألها عن السبب قالت إنها لا تعرف أحداً ركب البحر وعاد.

قال الشيخ أحمد:

"ولكن طريق الحج لا يمر عبر البحر"

فقالت العجوز:

"لا تصدّق هذا الكلام، البحر في كل مكان وليس له أمان".

"تعانين من المس؟" سألها.

"الجن لا تقرب امرأة مثلي. أنا أعاني من الليل" أجابت.

احتار الشيخ أحمد في ما الذي سيقوله. ثم اهتدى إلى سؤالها عن عمرها فقالت إنها تتذكر كل شيء حتى إسحاق ويعقوب.

"ولماذا يوجعك الليل؟"

"ليس كل الليل" قالت.

ابتلعت ريقها وغمغت:

"ليل الجبل".

قال الشيخ أحمد وهو يحاول أن يحتويها:

"أنتِ لم تعرفي ليل الوادي".

أنفها صغير، وهناك مسافة واسعة بين شفتها العليا وأنفها. اسمها تقى وستموت بعد سنوات طويلة بالسّعال، ولن يصدق أحد أنها ماتت وسيقولون إنها نامت أخيراً.

وعندما سيقررون دفنها لن يصلّوا عليها عملاً بوصيتها، لأنها ستقول لهم قبل موتها "دعوني وشأني وانتبهوا لنسائكم".

ستفقدهم تلك الجملة صوابهم وسيدورون حول أنفسهم مثل الوحوش الجريحة، فها هي تقى الملعونة تموت وهي تعرف ما لا يعرفونه وما لن يعرفوه قط. حتى وإن كذبوا على أهل الوادي وقالوا إن نساءهم مصونات. فقد جرى مجنون القرية حول المقبرة في ذلك النهار، وهم يستعدون لوضعها في اللحد، وهو يصيح: إذا قالت تُقاتُ فصدقوها، فإن القول ما قالت تُقاتُ. سرى قوله بين الناس حتى بلغ الوادي، فاستعاد الرجال هناك كرامتهم والتقطوا أنفاسهم أخيراً. وصاروا يذهبون إلى شجرة الغريب محمّلين بذلك البيت الذي أفزع من بقي من رجال الجبل ولم يذهب مع الآخرين بحثاً عن البلاد.

جلست تقى إلى الشيخ أحمد وما من أحد هناك. سألته عن زوجة محمد سعيد فارتبك الشيخ وقال إنه لا يعرفها ثم عاد وقال إنها جاءت مع مجموعة من النساء وأنه كتب لهن آيات قرآنية على ورقة ثم بللها بالماء وطلب منهنّ أن يشربن منه.

"وماذا عن قطرة الحبر التي تكشف كل شيء؟" سألته.

اقترب منها الشيخ أحمد وأمسك برأسها بكلتا يديه وقرأ عليها الآيات الأخيرة من سورة البقرة، وبقيت هي صامتة. كان يردد تعاويذ غامضة لا يعرف معناها، ويزمجر ويرغو كما لو أنه يعرف ماذا يريد. ثم كتب لها بعض الأدعية على ورقة وطلب منها أن تبللها بماء دافئ وتغسل وجهها، وهمّ أن يضرب جبينها بخاتم العقيق لكنها خاف من أنفها الصغيرة. سألته ما إذا كان من الجائز أن تمسح بذلك الماء المقدس خصرها حيث الوجع فمط شفتيه ولم تفهم ما إذا كان يريد أن يقول نعم أم لا.

"هل حقّا تستطيع أن ترى النساء في منازلهن يا شيخ أحمدّ؟"

سألته،

فقال لا.

ولم تكن قط متأكدة من أنه يقدر على رؤية النساء في خبائهن كمثل الآن بعد أن رأت إلى عينيه وهو يقول لا. الآن، وقد آمنت تقى بالشيخ أحمد، فإن سلطان الرجل على الجبل صار مطلقاً. ومن الجبل سينزل سلطانه ليشمل أهل الوادي، ثم جزيرة العرب، ثم هذه الدنيا التي بين أيدينا. وفي قابل الأيام سيصعد الرجال والنساء من الوادي إلى الجبل للاستشفاء وسيستأذنونه في أن يبنوا له القباب ولكنه سينهرهم قائلاً إن القباب تبخس الأعمار.

كل ذلك السلطان بقي في يده ولم يبلغ قلبه. كان وفياً لاعتقاده ومتّسقاً مع خوفه الذي جاء به من الوادي. وفي كل ليلة يجلس إلى القطرة ويسألها عن الحرب فتفتح له جانباً من المعارك بين الجمهوريين والملكيين. في غالب الأحيان كان يعجز عن رؤية الجثث، كان يرى الحرب من الأعلى في مهابتها وطهارتها وكان يتمنى لو أن الطرفين ينتصران في آخر الأمر. يزحف الجمهوريون من صنعاء إلى ما وراءها ثم يعود الملكيون ويحاصرون صنعاء. كان يرى المحاربين يكبرون في السن، ومع الأيام ينسون الأسباب التي دفعتهم لخوض تلك الحرب الكبيرة. ومن وقت لآخر يأتي رجال من قرية إسحاق إلى مجلسه ويرددون عن الحرب كلاماً سمعوه من راديو الشيخ رسّام. كان يستمع إليهم، وإذا قيل له أخبرنا أنت يا شيخ عن الذي يجري في صنعاء يعدل الشيخ عمامته ويقول لهم "كل ما سمعتموه صحيح ولكن هذه الحرب لن تعرف النهاية".

"وهل نؤيد الملكيين أم الجمهوريين؟" يسألونه

فيقول لهم إن الحرب التي يراها كل ليلة هي حرب بين الناس وليست بين الملكيين والجمهوريين.

وصاح رجل في المجلس "أوقفها أنت يا شيخ أحمد".

وردووا جميعاً أوقفها أنت يا شيخ أحمد.

وسيرددون هذه الكلمات في الأيام القادمة عندما سيتيح لهم الشيخ أحمد الفرصة لحضور مجلسه.

ثم خطر في باله أن يرى قبيلته في الحرب، فتوسل أمام القطرة ليلة كاملة إلى أن كشفت له جانباً من قريته في جبال الشمال. كانت قطرة الحبر عصية حين يتعلق الأمر بقبيلته البعيدة، ولا تفتح له أبوابها حتى يطيل التوسل ويدركه اليأس. رأى شقيقه الأكبر يحمل مدفعا على كتفه ويتقافز مثل الجن والرُّبَاح من جبل إلى جبل. وكانت القبيلة، كل القبيلة، تتقافز معه من جبل إلى آخر تحمل المدافع على الأكتاف والنعال تحت الآباط. وكلما مرّت قبيلته على قرية صرخت بأعلى صوتها فتختفي القرية من الوجود. بقي يجري بعينيه خلف قبيلته إلى أن تبلغ البحر. قام من مكانه، وكان الليل في الخارج أسوأ من ليل البلدان الأخرى. أيقظ امرأته وطلب منها أن تطفئ الأنوار وتحدّق معه في الليل. كانت تحدّق ونبضاتها تتسارع ولم تحاول حتى أن تفهم ماذا يريد منها أن ترى. كانت تحدّق في الليل ولا ترى شيئاً وكان يحدق في عينيها ولا يرى سوى الليل، إلى أن أدركهما التعب. ثم تركها وقام يتمشى في الديوان، وفكّر في أن يكتب قصيدة عن الحرب ولكنه خشي على أبنائه من الشعر. توسلت إليه قمر أن

يلقي نظرة على ما هو فيه من المجد ففكّر في نفسه وغمغم "ولكني لا أرى سوى الحرب".

دفعته الحرب يوماً ما في صباه من أعلى الجبل إلى أسفله بعد أن أمره جده حازماً "لا تعد سوى برأس، أي رأس" فتاه الرجل في الدنيا. عذبته الحرب، رعشته من الداخل، دخلت في جلده، ولونت دمه. يعرف الشيخ أحمد أن الحرب لونت دمه، ولطالما سال دمه وكان لونه باهتاً أقرب إلى الرمادي منه إلى الأحمر. غير أن جده والقبيلة لم يروا ذلك الدم، ولن يروه. كانت ذاكرته تجيء وتروح، أحياناً يتذكر أنه كانت له أم، وفي أغلب الأوقات يسقط الماضي من وعيه ويبقيه عارياً بلا تاريخ. قال له الهاتف وهو يضعه على مدخل الوادي "سأطهرك من ماضيك، وستتذكره وتنساه، ثم ستتذكره وتنساه إلى أن يشاء الله". لم يفهم ذلك الكلام إلا متأخراً، أو ربما لن يفهمه أبداً.

الشيخ أحمد شيخ معذّب، أينما حل تدركه الحرب، وفي أوقات كثيرة يراها ولا تراه أو لا يراها سواه. لم تهدأ حرب اليمنيين قط، حتى إن قال له الناس في الوادي إنه ما من حرب وأنه فقط يخترعها فقد كانت هناك حرب في مكان ما ولم تكن من اختراع أحد. تلك البلاد الواسعة حيث الجبال والحروب والبحار لم يعد يعرف لها اسماً، وها هو يسمع هديراً داخل جمجمته يقول له "أوقف هذه الحرب يا أحمد" فيتأمل الرجل

أنامله ويتحسس عمامته ويهمس لنفسه "من أنا لأوقف حروب اليمن". وها هو يصبح متألها في الجبل يرى الناس من حيث لا يرونه، ويأتونه للشفاء، يخضعون له، يغلقون النوافذ خشية عينيه، وهو القادر العليم، وهو من يحبس الجن في صخور الجبل، وهو من ربط البرق على أشجار السدر وتمكن من طرد السحاب البيضاء. تنظر زوجته إلى كل ذلك المجد ولا تفهم منه شيئاً، وتنتظر زيارة النسوة لها في دارها حيث سيحدثنها عن مجد زوجها وألوهيته وسترتاح نفسها بعض الشيء. غير أنها ستلتقي زوجها في المساء، في كل مساء، وستجده غائباً في نفسه، تائهاً كما كان حين ألقى عليها قصيدة لأول مرة وسألها إن كانت قد فهمت منها شيئاً. لم تخبرها عينا الشيخ أحمد طيلة الأيام أكثر مما أخبرتها به ذلك النهار.

وفي ليلة سيتقلب الشيخ أحمد إلى جوارها ويضربها بساقه، وستفتح عينيها متألمة. وعلى ضوء الفانوس سترى عضوه الذكري وستحدق فيه طويلاً، ثم ستدرك تفاهة ما هي فيه من مجد وعظمة.

يا شيخ أحمد، يا شيخ أحمد

صارت قرية يعقوب أم القرى.

الناس في يعقوب صاروا أكثر الناس مهابة فهم من يرون الشيخ أحمد. ثم سيصبح الجبل أهم الجبال، وسيأتي إليه الناس من سائر الجبال والوديان. يتوافد الناس على الشيخ أحمد، النساء للتداوي والرجال للأنس وهرباً من عينيه. حدد يوم الجمعة يوماً للالتقاء بالرجال في داره، وصار شيوخ القرى المتناثرة على الجبل يحرصون على حضور مجلسه. بعد ذلك صار يباعد بين المجالس وصاروا يجلسون إليه مرّة في الشهر. أصبح يملك ذلك الدار بعد أن تبرّعت به السيدة أثمار بنت محمد عن طيب خاطر، واستأذنته في أن تحتفظ بغرفة في الدور الأرضي. ولما طلب منها أن تقيم فيه هي وابنتها هبطت الدرج قفزاً تبحث عن ابنتها وكادت تهوي على رأسها. غير أن أهل

قريتها زجروها ولم يشرحوا لها الأسباب، فأخذت ابنتها وذهبت لتعيش في دار جدها لأمها. كان الشيخ أحمد يلتقي الرجال في ديوانه الكبير، ولم يعد الناس غير المهمين مثل عبد الواحد الرضي قادرين على الحضور. مع الأيام سيعجز الشيوخ الذين اعتقدوا أنهم غير مهمّين عن الوصول إليه. ينصحه محمد سعيد بأن يفعل شيئاً محمودا، أن يخلط الرجال غير المهمّين بالرجال المهمّين ولكنه يتلكأ بعض الشيء ويرجئ الأمر قليلاً. وفي يوم جمعة، والجمهوريون والملكيون يتقاتلون حول صنعاء منذ سنوات، سأله شيخ من الحاضرين ما إذا كان القاتل والمقتول سيذهبان إلى النار. كان محمد سعيد بين الحاضرين وقد صار مستشاراً للشيخ أحمد. بحركة من حاجبيه أذن لمستشاره بالكلام فسخر محمد سعيد من ذلك الحديث الذي يقول إذا التقى المُسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قال إنه من اختراع الحكّام، وأن المحدّث الذي وضعه إنما فعل ذلك بإيعاز من الأمويين وقد تحولوا من مسلمين إلى ملوك.

قال شيخ من الحاضرين، وكان قد ذهب مراراً إلى الحجاز ويحفظ أحاديث كثيرة:

"بلى، الحديث صحيح يا أخ محمد سعيد"

واصل الشيخ كلامه وقد لفت انتباه الشيوخ الآخرين:

"هذا حديث الأحنف بن قيس وقد سمعناه في الحرم المرّة والمرتين. قال ابن قيس ذهبت لأنصر هذا الرجل فلقيني أبو بكرة فقال أين تريد قلت أنصر هذا الرجل، فقال ارجع فإني سمعت رسول الله يقول إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال كان حريصاً على قتل صاحبه".

ارتبك محمد سعيد وهمهم الشيوخ الآخرون. لم يعد الأمر يتعلق بمعالجة حديث للنبي بل ما هو أخطر من ذلك، برفض كلام الشيخ الذي تحدّث للتو. في الجبل يمضي كل شيء كما هو مقدّر له عدا أمرين: الحديث إلى الشيوخ وتربية الدجاج. محمد سعيد جاهز للنقاش والجدل، وتلك مهمته من قبل أن يؤسس الكُتّاب. غير أن ما حل في أرواح الشيوخ تلك الساعة كان مروّعاً، فقد سمعوا حديثاً من لسان شيخ عليم يقول إن كل من حمل السيف سيذهب إلى الجحيم، وأن الحكم ينسحب على الرجلين: المنتصر والمهزوم. إن كان الحديث صحيحاً فقد حلّت الفاجعة. هم قتلة ومقتولون على مرّ الأيام، حمل أجدادهم السيوف وسيحملون هم البنادق. تلك سيرة ممتدة في التاريخ، الجبل يقاتل الجبل منذ القدَم، ولكل جبل شهداء وأبطال وأولياء. وقد تواطأ الناس هناك على القول إن الله سيتفهّم تاريخهم ويجمع الخصوم ويغفر للجميع. فكّر شيخ شاب، كان يجلس في ركن الديوان، أنه إن كان الحديث صحيحاً

فإن كل رجالنا سيذهبون إلى النار وستدخل نساؤنا الجنة وهناك سيجلسن ألف سنة وحيدات، وكلما مرّ بهن نفر من الرجال وسألوهن عن رجالهن انفجرنَ باكيات. اجتاحته قشعريرة من سرّته إلى شفتيه وتخيل نساء الجبل وهن واقفات ينتظرن الأحنف بن قيس، وهو منشغلن عنهن بقص شاربه.

ما من شيء في الجبل يضاهي في روعته الأمطار وخيالات الشيوخ.

سأل محمد سعيد:

"ومن هو هذا الرجل الذي يقصده الأحنف بن قيس؟"

حل الصمت. أصوات أشياء. مطر في الخارج.

وكان الرعيان في تلك اللحظة قد انتهوا من تبخير الجبن.

وأحس مؤذن في قرية بعيدة بقرقعة في ظهره فغمغم "الله المستعان".

انتهز شيخ من الحاضرين الصمت وقال أظنه يقصد عثمان بن عفّان، وقال شيخ ثان هو عثمان بن عفان، ولكن شيخاً ثالثاً كان حاسماً وهو يقول "هو عثمان ولكنه ليس ابن عفّان". بحث الشيوخ فيما بينهم عن اسم الرجل، وتردد محمد سعيد حتى تأكد أنه ما من أحد منهم يعرف شيئا. كان عليه أن ينتظر ويتردد فهو الرجل الوحيد الذي

ليس شيخاً، ولو لم يكن في معيّة الشيخ أحمد وفي داره وحماه لجاملهم قائلاً إن ما تقولونه صحيح، ولوافقهم على كل الأسماء، ولقال إنه عثمان بن عفّان ولكن ليس عفّان مائة بالمائة.

لكنه راح يقول، وقد أذن له مولاه بحركة من حاجبيه:

"انظروا، ابن عبّاس هو صاحب النبي وابن عمه وكان رسول الله يضربه على صدره ويدعو: اللهم فقهه في الدين. ابن عباس لم يكن مقتنعاً بهذا الحديث الذي يطلب من الناس أن يقبلوا الظلم ويجلسوا في بيوتهم لمجرد أن الظالم مسلم. كان مجلس ابن عبّاس .."

ثم قاطع نفسه بنفسه وقال منفعلا:

"إن لم نأخذ الدين عن ابن عبّاس فلن نجده في مكان آخر"

أكمل حديثه قائلاً:

"كان مجلس ابن عبّاس يشبه مجلسنا هذا. وكان يحدث الصحابة ويقول لهم "لِمَن قُتِل مؤمناً توبة". أحب الصحابة هذا الحديث لأنهم سيغضبون في يوم من الأيام وسيحملون السلاح ويقتلون أناساً مسلمين. لا بد من توبة لهم، الصحابة لن يدخلوا

النار وإلا لحدثت فضيحة يوم القيامة، فضيحة للصحابة وفضيحة للنبي. من أجل هذه القضية نزلت سورة البقرة"

نظر إلى شيخ من الحاضرين اسمه جعفر حسين وقال:

"تخيّلوا أن يدخل الشيخ جعفر حسين والأخ محمد سعيد الجنة، ويذهب طلحة والزبير إلى النار؟"

لم يضحك أحد. كان الشيخ جعفر حسين شارداً يفكّر بديار مكّة، وعندما سمع اسمه أفاق من شروده.

"أكمل يا بن سعيد" قال شيخ

"أكمل أكمل يا بن سعيد" قال ثلاثة شيوخ في الوقت نفسه.

"أكمل كلامك" قال شيخ ولم يقل يا بن سعيد.

أكمل محمد سعيد حديثه:

"ما هي سورة البقرة؟ هي قصة رجل قتل رجلاً، ورجال سيقتلون رجالاً. سواء أكان القتلة ظلمة أو عادلين فهم قتلة سفكوا الدماء ولا بد لهؤلاء الناس من مخرج. التوبة. هذا هو فقه ابن عبّاس. وهذا هو فقه الشيخ أحمد. أنا لا أقول لكم اقتلوا، ولكن أقول

إذا قتلتم لا تخافوا. تناقشنا أنا والشيخ أحمد في الأيام الماضية حول سورة البقرة وقال لي إن الله أنزلها ليعتق الرجال الذين ضاقت بهم الدنيا. على سبيل المثال رجل قتل رجلاً آخر وظن أنه سيُذهب به إلى النار. يقول له الله في سورة البقرة لا، لك توبة، لك فرصة. الله توّاب، الله يضحك، والله يغفر أي شيء، أي شيء. ما هو المخرج من تلك الكبيرة؟ المخرج موجود في مكان ما ولا بد أن يبحث عنه. يقول له الله اعتق رقبة، كما قتلت رجلاً اعتق رجلاً. يذهب القاتل إلى رجل يملك عبداً ويدفع له المال. سورة البقرة حررت الرجلين، أنقذت الأول من النار وحررت الثاني من العبودية. إن الإسلام واضح وضوح الشمس: إذا ظُلمتم احملوا السلاح، وإذا أرقتم الدماء لا تخافوا."

تمهّل، نظر إلى عيني الشيخ أحمد ورأى الرضا.

واصل حديثه:

"خذوا هذا المثال الثاني: تحدث جريمة قتل في قرية فيأمر الله أهل القرية أن يذبحوا بقرة. يبحثون ليل نهار عن بقرة تطابق الأوصاف التي أرادها الله، وبعد جهد وتعب يجدونها عند امرأة مسكينة ليس لديها من خير سواها. يعودون إلى الله ويقولون له يا رب لقد وجدنا البقرة ولكن صاحبتها قالت إنها تدخرها لابنها اليتيم. يقول لهم الله اشتروها بأغلى الأثمان واغنوا صاحبتها المسكينة. يرجعون إلى قريتهم بالبقرة

ويحررون بها القاتل من ذنبه واليتيم من فقره. هذه هي سورة البقرة، تضرب يمنة ويسرة في الوقت نفسه".

توقف عن الحديث ونظر إلى عيني الشيخ أحمد فلم ير الرضا هذه المرّة ولكنه رأى أشياء أكثر جلالاً من ذلك، أشياء جعلته يواصل الحديث:

"الأمثلة من هذا النوع كثيرة في سورة البقرة، هي سورة المسلم الحُر. لو حدثكم عنها الشيخ أحمد كما حدثني لوقف شعر رؤوسكم. تخيّلوا ابن عبّاس في مجلسه. ذات مرّة دخل عليه رجل مُريب وسأله أمام الحاضرين: ألست تقول إنه لمن قَتل مؤمناً توبة؟ فقال له ابن عبّاس لا، أنا لم أقل ذلك أبداً، لا توبة لمن قتل رجلاً مؤمناً سوى النار. خرج الرجل غاضباً ومضى يتلفت يمنة ويسرة ولم يدر ماذا يفعل ثم اختفى بين المنازل. قال بعض الحاضرين لابن عبّاس ولكنك قلت هذا الكلام مراراً، قلت إن للقاتل توبة. قال ابن عبّاس ألم تنظروا إلى عيني السائل؟ أظنه يفكر بقتل رجل مؤمن. اخرجوا وراءه وتعقبوا أثره. خرجوا وترقبوا فرأوا السائل مختبئاً بين المنازل يهم بقتل رجل مؤمن. هذا هو فقه ابن عبّاس، وهو فقه الشيخ أحمد، وهو دين الله الذي نأخذه من مضانّه. دين يقول لنا إن الظلم هو الجريمة وإن كسر الجاه أسوأ من يوم القيامة. الله لا ينظر إلى الدم المسفوك فقط ولكن إلى أسباب القاتل أيضاً. فإن

كان مظلوماً أو خائفاً فالله وكيله. وإن كان ظالماً فعليه أن يحرر الرقاب ويدفع الأموال وتلك هي التوبة. وكما قلت لكم يحرر الله العبيد بدماء المقتولين".

تحدث محمد سعيد ونسي أنه يتحدث إلى الشيوخ. لكنهم كانوا منصتين على نحو أدخل السكينة إلى قلب كل رجل منهم.

لم يحدث قط أن جلس الشيوخ كلهم في ديوان واحد وسمعوا عن ابن عبّاس.

لاحت الفرصة للشيخ أحمد فمضى يقول للحاضرين، وقد استراحت نفسه لما قاله صديقه ومستشاره:

"كما قال بن سعيد، هذه الأحاديث لتربية الناس وليست للحكم عليهم، وفيها هُنا وفيها هناك. يأخذ ابن عباس فقرة من هنا ويضعها هُناك بناء على ما يراه أمامه وما يقرأه في عيون السائلين. الدين تنزيل، والتنزيل مواءمة ومواكبة ومقاربة وتسديد. فإذا كان الناس صالحين مثلكم وعدهم ابن عبّاس بالمغفرة، وإن كانوا أشراراً وعدهم بالنار. الحق أن الله أرسل الأنبياء ليعلمونا الحرب لا ليدرسونا العقيدة. الرسالة الحقة للنبي، أي نبي، هي السيف. القرآن نفسه يقول كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيين. لم تكن هناك من حرب بين الناس قبل النبيين، وكانوا أمّة واحدة متآخية حتى إنه ليقال إن المرأة كان ينبتُ لها الضرعان والثلاثة. حلت بعد ذلك الأوبئة في

الديار، وسكنت الجنُّ الجبالَ والوديان، وفاضت الآبار. حدث كل ذلك لأن الناس لم تكن قد وجدت السيف. تمنّى الله أن يهتدي الناس إلى الحرب وأن يجدوا السيف، ولما رأى أن ذلك الأمر لن يخطر على قلوب عباده أرسل إليهم عوجَ بن عنق. استفزّهم بأطول المخلوقات وأقواها، وانتظر أن يبادروا لصناعة السيوف والتروس. كان عوج بن عنق كلما أعجبته قرية تبوّل عليها وأغرقها، وإذا لم يأنس لأصوات الرجال جمعهم على أرض مستوية وضرط عليهم ضرطة واحدة وجعلهم أثراً بعد عين. وكان من ينجو من ضرطة بن عنق يفرّ إلى الجبال ويمضي عمره يتضارط مع الهوام والحيوان حتى قيام الساعة. استسلم الناس لما حل بهم ولم يفكروا قط بالسلاح. كانوا يرون عوجَ بن عنق عند الغروب وهو واقف تحت الشمس فيظنون أنه الله. بدلاً عن أن يفهموا مغزى الله راحوا يعبدون عوج بن عنق. لمّا يأس الله منهم أرسل طيراً له عشرة أجنحة، دخل الطير في سرّة بن عنق وجعل يخفق بأجنحته إلى ما شاء له الله. خفق أياماً وليالي حتى فقد عوج بن عنق صوابه وألقى بنفسه من شاهق ومات. بعد ذلك أرسل الله نبياً لإنقاذ الناس من ذلك السلام الذي عاشوا فيه. كانت صناعة السلاح هي أول ما تعلموه من النبي، ثم المبارزة وعمل الكمائن. كان يقسمهم إلى مؤمنين وكفار ويأمرهم بالقتال. أفنى قرية كبيرة ليعلم باقي القرى. ثم توارث الناس صناعة السيوف. أخذتهم السيوف إلى الحرب، وبعد ذلك تكاثر الأنبياء ليوقفوا

الحروب أو لينتصروا فيها. لكن النبي الأول كان أعظم رجل في التاريخ فهو أول من صنع سيفاً للبشرية".

التقط الشيخ أحمد أنفاسه، كاد يختنق لفرط انفعاله. واصل حديثه والشيوخ يعدّلون وضع عمائمهم وينظرون إلى المجهول:

"الله هو الله، لن يزيد في ملكه شيء إن عرفناه أو جهلناه. يرسل الأنبياء إلى الناس ليعلموهم الدفاع عن أنفسهم وحماية ذرياتهم لا ليصفوا لهم الجنة والعرش ولا ليكتبوا القصائد في حب الله. الله لا يريد منا أن نعرف شيئاً عن العرش. الرجل الذي عاش بعد موت النبي وكان يمشي في القرى يكلم الناس عن العرش والبيت المعمور أكله السبع لأنه لم يكن يحمل سيفاً. الله يقول لو أن إنسكم وجنكم وحيكم وميتكم وذكرهم وأنثاكم كانوا على أتقى قلب رجل فيكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. نحن هنا على الأرض لا لنزيد من ملك الله بل لندافع عن أملاكنا التي هي أملاك الله، وعن كرامتنا التي هي من كرامة الله"

توقف الشيخ أحمد عن الحديث.

كان الشيوخ يهزون رؤوسهم للأعلى وللأسفل، مرخين شفاههم.

لم يحدث من قبل أن اجتمع الشيوخ في غرفة واحدة وهزوا رؤوسهم كأنهم شيخ واحد.

ولم يحدث قط أن سمع الشيوخ معاً، في ديوان واحد، كلاماً عن البيت المعمور وقالوا معاً "رضي الله عن الشيخ أحمد".

لا بد للشيخ أحمد أن يكمل حديثه، وأن يتداعى أمام ضيوفه كما تداعى أمام نفسه في الأيام الماضية:

"إذا لم يتعلم الناس الحرب ويكدسوا السلاح فإن أموراً عظيمة ستحصل. في آخر الزمان عندما يعلّق الرجل سيفه على الشجرة ويمضي في سبيله معتقدا أن زمن السيف قد ولّى سينتهي الزمان. ستأتي ريح من الشام وتأخذ أرواح الناس الذين ليس في أيديهم سيوف، ستأخذ أرواحهم من تحت آباطهم. أتعرفون لماذا من تحت آباطهم؟ ثم ستأخذ أروج من بيدهم السيوف، ستأخذ أرواحهم من بين أصابعهم. أتدرون لماذا من تحت أصابعهم؟".

لم يسمع جواباً.

كان الشيوخ سارحين في حديثه.

ولم يحدث قط أن فكّر الشيوخ كلهم في الوقت نفسه حول ما الذي جعل آباطهم مسألة تستحق الذكر.

سأله شيخ :

"ما اسم ذلك النبي الذي صنع أول سيف في التاريخ يا شيخ أحمد؟"

تردد أحمد في الجواب قليلا وتشاغل بمسح وريقات غصن أحمر، وضع الوريقات في فمه ثم قال وهو ينظر إلى السقف:

"طه. كان اسمه طه".

قال محمد سعيد مازحاً وجاداً في الآن نفسه:

"والله يا شيخ أحمد لأقاتل الجن والإنس حتى يصير دمي دم كلب ولا أرى زوجتي وقد نبت لها ضرع في ظهرها"

وضحك الشيوخ.

لم يحدث في تاريخ الجبل منذ أيام النبي نوح أن اجتمع الشيوخ كلهم في ديوان واحد وضحكوا معاً.

واصل أحمد حديثه:

"سنرسل أولادنا إلى تعز ليشتروا البنادق. وإذا لم يجدوها في تعز سنرسلهم إلى عدن"

قال شيخ:

"لا تباع البنادق في عدن، الإنجليز هناك يسيطرون على الصغيرة والكبيرة"

قال الشيخ أحمد:

"سنرسل عيالنا إلى المُدن حتى صنعاء"

قال شيخ اسمه النفّاش، وله أقارب في عدن:

"الحرب في عدن أشد من الحرب في صنعاء، والإنجليز في وضع أسوأ من الإماميين"

سأل شيخ:

" وهل سنشتري بنادقنا من الجمهوريين أم من الملكيين؟"

فأجابه الشيخ أحمد:

"سنشتري من الجمهوريين البنادق ومن الملكيين الرصاص".

صاح شيخ "والإنجليز يا شيخ أحمد". ولكن الشيخ أحمد تجاهله ونظر إلى الضيف الذي سأله "هل نحن ملكيون أم جمهوريون يا شيخ أحمد؟"

فقال الشيخ أحمد:

"نحن مع ابن عبّاس"

ووجد كلمته تلك فارغة وبلا معنى، ولكن الشيوخ تلقفوها بفرح وسيغادرون دار الشيخ أحمد سعداء وعبّاسيين.

توقف عن الكلام، وضع عمامته على فخذه. ثم عاد ووضعها على رأسه. كان الشيوخ ينظرون إليه، في عيونهم أسئلة وتيه وغضب.

لم يحدث قط أن اجتمع الشيوخ كلهم في منزل واحد وغضبوا بلا سبب.

قال الشيخ أحمد، مستكملاً حديثه:

"مسخت الحرب بني إسرائيل إلى قردة وخنازير. انظروا إليهم في الجبال، يتصايحون مع الجن والريح. كان جدّي يرسلنا إلى الحرب ويأمرنا أن ننتهي منها في يومين قبل أن يمسخنا الله إلى قردة وخنازير. ليس اليهود وحدهم من مسخوا قردة وخنازير. انظروا ماذا حلّ ببني أمّية الذين لم يفعلوا شيئاً سوى الحروب. عندما ذاقوا آخر

هزائمهم في معركة الزاب بحث العبّاسيون عن جثة مروان بن محمد، آخر ملوكهم، فوجدوا رأسه تعبثُ به القطط. يُقال إنهم ذعروا لمنظره فقد كان يشبه رأس خنزير. الحرب في صنعاء طالت وأكلت الأخضر واليابس، ويوشك أن يمسخنا الله إلى قردة وخنازير كم فعل مع أمم من قبلنا".

"ولماذا لا نصرف الحرب بالدعاء والصلاة والصيام كما كان أجدادنا يفعلون؟"

سأله شيخ قصير القامة وأشهل.

فأجاب الشيخ أحمد:

"الدعاء عبادة، والعبادة فردية. لكن مقارعة الظلم والطغيان عمل الناس كافة. الدعاء الجماعي بدعة كبرى، وليس من اللائق أن نربك الله بآلاف الدعوات في نفس الوقت. الله يقول عن نفسه كل يوم هو في شأن، وعلينا أن نحترم ذلك، وأن نذهب إليه فرادى. مقارعة الطغيان شأن الناس وليس شأن الله. انظروا إلى الطغاة حولنا، لقد أفسدوا حياتنا وأذاعوا الخوف فيما بيننا، الجمهوريون والملكيون. هؤلاء يتبعون طاغية مصر وأولئك يأتمرون بأمر طغاة الحجاز. ادعوا الله أن يقيض الله لنا رجلاً يخاف الله ويخافه الناس، يبادر إلى الحق كما يبادر إلى السيف، ويستوي عنده الذهب والمدر.

كل ظلم سيؤدي إلى الحرب. لا بدّ مما ليس منه بد، لا بد من حرب توقف كل هذه الحروب وتصرف عن الناس الخوف".

توقف عن الكلام، مضغ ورقات قات حمراء وقال لنفسه:

"وداوني بالتي كانت هي الداء".

ولكن الشيوخ سمعوا غمغمته، ومثله غمغوا "وداوني بالتي كانت هي الداءُ". عدا شيخ واحد لم يسمع الجملة إلى آخرها، ومثلهم راح يغمغم:

وداوني بالتي يا دائي الداءُ.

صمت قليلاً، وترك للشيوخ الوقت لاستيعاب ما يقوله، ولا يعلم سوى الله ما الذي دخل في رؤوسهم في تلك الساعة وما الذي خرج.

"أنتم أهل الله" قال الشيخ أحمد، فلمعت عيونهم كأنها عيون القطط. لقد أخذهم بتلك الجملة كما لم يفعل من قبل. وفكّر الشيخ سفيان، لفرط سعادته، أن يفعل مثلما كان يفعل في طفولته حين يبتهج.

انتهى الشيخ أحمد من كلامه وقام.

ذهب إلى المُستراح وجلس للتبوّل. وعندما حدّق في عضوه الذكري وقاس المسافة بين رأسه وخصيتيه أدرك أن تلك الحرب قد مضى عليها وقت طويل، وأن ذلك لم يعُد يُحتمل.

واصل المطر هطوله وسمع الرجال برقاً رهيباً. سبحوا الله وأثنوا عليه، وقال شيخ اسمه نصر "هذا في بني سعد" ثم همس إلى جاره فنهره الرجل قائلاً "ليس وقت هذا الكلام يا شيخ نصر، ليس وقته".

عاد الشيخ أحمد إلى مجلسه، الشيوخ لا يزالون يحدّقون في مكانه وربما لم يلاحظوا أن الرجل غادر وعاد. استوى جالساً، الشيوخ يحدّقون، تناول غصن قات ودسه في فمه. حدّق في السقف، جاء ولد وغيّر رأس المداعة، ربما كان ولده أو ولدا من أبناء النساء اللائي عرفن الطريق إلى دار قمر. أخذ الشيخ نفساً عميقاً ثم أخرج سحاباً كثيفة من الدخان، جمعها في رئتيه واستخرجها من عظام ساقيه. تجمّعت السحابة وأخفت عمامته، وسعل مرّتين. بقي الشيوخ يحدقون في عمامته التي لم يعودوا قادرين على رؤيتها.

لم يحدث قط ان اجتمع الشيوخ كلهم في ديوان واحد وحدّقوا في عمامة لا يرونها.

جاءهم صوته من خلف سحابة الدخان، كان عامراً بالقوة والغموض. قال:

"علينا أن نوقف كل المهازل التي تضرب البلاد في طولها وعرضها وأن نقف كرجل واحد"

كانت تمطر في الخارج. كلاب تنبح. الرعيان يهشّون الأغنام، امرأة على أكمة تنظر إلى قرية الشيخ إسحاق وتتمنى لو أنها كانت رجلاً، ثم تنظر إلى نهديها وتضحك وتواصل جمع الحطب.

سعل الشيخ أحمد من جديد حتى بدد سحابة الدخان. بانت عمامته، خرجت من سحابة الدخان كأنها جبل أو سفينة، همهم بعضهم وذكر الله، آخرون سمحوا لشفاههم السفلى أن تتدلى إلى ما شاء لها الله. جاء الصوت الدافئ للشيخ أحمد الذي لم يبتسم في حياته سوى مرات قليلة:

"سنجمع الملكيين والجمهوريين ونضرم فيهم النار كما فعل الإمام بالغلاة. سنرى بعد ذلك ما الذي سنفعله بالإنجليز".

بقيت أفواه الشيوخ فاغرة، سقطت عمائهم إلى حجورهم. دارت عمامة الشيخ الذي قال إنه درس الحديث في الحرم، دارت على رأسه أولاً، ثم قفزت إلى قاع الديوان. واصلت الدوران حتى بلغت الباب، تقافزت في درجات الدار، خرجت إلى القرية، تدحرجت في الطرقات. ولما اقتربت من المسجد هرعت الكلاب خلفها وراحت تنبح،

ولكن الكلب عنتر هبّ واقفاً وأصدر صوتاً عظيماً فتسمرت كلاب قرية يعقوب في مكانها.

كانت قد توقفت عن المطر، وقوس قزح يصل بين جبلين، والنساء يشاهدنه ويتهامسنَ بالسور الصغار من جزء تبارك. وعندما دنت الشمس من منزل درهم بن محمد آل بكاري القريب من البحر غادر الضيوف منزل الشيخ أحمد وقد عزموا على شراء البنادق كلها.

حلّ الليل ونامت قرية يعقوب، نامت كل القرية عدا نسوة ثلاث. وكان الكلب عنتر يفكّر في تلك اللحظة بمصير الميّت الذي دفن البارحة. عرفه عنتر حق المعرفة، وسمعه في عديد من الليالي يجلس على المقبرة مخموراً ويلعن أخته وزوجها.

بعد أن غادر ضيوفه قال الشيخ أحمد لزوجته:

"أرسلت إلى الحاج زُط وسيصل قبل المغرب"

زُط رجلٌ حكيم والشيخ أحمد بحاجة إلى رجل يقول له شيئاً واحداً فقط: أنه لم يُجَن.

حدقت دولة في عينيه متسائلة، ولم تنبس بكلمة. بقيت تحدق فيه وهو يتحاشاها، وما كان له أن يهرب من عيني دولة، ليس في تلك الساعة. وهكذا فقد فعل الشيخ أحمد ذلك النهار شيئاً لم يفعله من قبل قط، ولم يخطر حتى على باله:

تحدث عن الحرب إلى امرأة.

في تلك الليلة غيَّر الشيخ أحمد اسم زوجته إلى دولة. ولمّا سألته عن الاسم قال إنه اسم أمّه، ثم تنبّه لأول مرة إلى أنه لا يعرف اسم أمّه. كانت دائماً أمّه، وكانت دائماً أم أحمد. أنفق ما بقي له من الليل موجوعاً يبحث عن اسم لأمّه، ولما أدركه النعاس أسمى أمّه دولة ونام.

الحافظ الله يا أحمد

يعود الشيخ أحمد إلى الكلمات التي فكّر بها مليّاً. هو الذي ركض السهوب والجبال وخلفه ماضيه. الآن يركض خلف أطفاله. استعاد أيامه القديمة واستطاع رؤية أمه وهي تسأله إن كان لا يزال يحس بالوجع. كان خائفاً وعاشا خائفا ولم يدر قط ما يخيفه. خاف من المقابر، أصوات البنادق، الغرباء، المؤذن، الأحلام، الحروب، ومن النساء الجميلات، من المرأة التي لا تنظر إلى الأرض وهي تمشي. خاف من كل شيء

ثم أدرك أنه لا يخاف سوى من شيء واحد: من ماضيه. نصحه الخضر وهو يضعه في مدخل الوادي أن لا ينظر إلى الخلف، ولكنه نظر. كان يجدر به أن ينظر إلى الخلف وأن يبحث عن ماضيه، فقد ترك أمّه. رآها بالأمس القريب وهي تقول لجارتها إن أحمد ذهب ليجلب لها حليب الإبل، وتبكي لأنها كذبت. رآها تقوم من مكانها وتمضي خطوات ثم تنظر إلى البعيد، تضع كفها فوق جبينها لتبعد الشمس عن عينيها وتتمتم "الحافظ الله يا أحمد، الحافظ الله".

في تلك الليلة انفجرت أشياء جبّارة في روح الشيخ أحمد، جلس يلملمها حتى الفجر.

أضاع أحمد الطريق إلى أمّه، وحل الشعر الأبيض في رأسه ولحيته ولا يدري ما الذي حل بقبيلته. استدعى قبل لقائه بالشيوخ الرجل الذي كان اسمه عبد الواحد الرضي. سمع الكثير عن معرفة الرجل بالجبال والحيوان، فهو ليس فقط الرجل الذي كان ينكح الماشية بل الرجل الذي يجدها إذا اختفت، ويعرف السبل حين لا تكون هناك من سبيل. سأله إن كان سيمضي إلى صنعاء إذا مضى الرجال فقال عبد الواحد الذي لم يفهم شيئاً من السؤال "نعم". لم يجد الشيخ أحمد مدخلاً للكلام، لكنه تمالك نفسه وقال سأرسل معك لبن إبل لأمي. بهت الرضي، ارتعشت شفتاه، لم يدر كيف

يسيطر على شفتيه. هز رأسه وقال "ونعم بالله"، فسالت الدمعات من عيني الشيخ أحمد.

أنت ومالك لابنتك

يقال أن الشيخ أحمد كتب هذه الرسالة، وأنها وجدت في واحدة من شقوق داره في الجبل. لم نجد في الرسالة لغة الشيخ أحمد ولكننا وجدنا ألمه.

إليكم ما تقوله الرسالة:

"أنا الشيخ أحمد، ولدت كما يولد النسر وسأموت كما يموت البعير.

دفعني جدّي إلى الحرب وأنا في العاشرة من عمري، كانت البندقية أعلى مني وأعلى من أي شيء في القرية. كان جدي إذا نجوت من المعركة يزمجر قائلاً "اقتل الرجل مرتين وعشر مرات ولا تعُد برصاصة واحدة". أطلقت الرصاص في الجبال ولا أدري إن كنتُ قد قتلتُ أحداً. قلت لجدّي إني قتلت الكثير من الخلق وكنت أحلف ولم يصدق قط. كان يبغضني أو يخاف مني. كانت جدتي تقول إن له أسبابه، فأنا الوحيد الذي ورث أنفه. أما أمي فكانت تقوم بأعمالها ولا تتحدث عن أي شيء. تمنيت لو أن الحرب تركت آثارها على جسدي لكنها تركت جسدي ودخلت إلى روحي. الآن نعم، الآن فهمت لعبة الأقدار، أقول هذا الأمر وأنا أعرف أن ما بقي من عمري أقل مما مضى. أكتب هذه الرسالة لمن سيجدها. أنا مثل سائر الناس، ولدنا جميعاً كالنسور، وسيموت بعضنا كالبعير وبعضنا كالسباع.

فهمت كيف للعبد أن يزحزح إرادة الرب. كان جدي يعتقد أني أهرب من المعارك فكرهت عودتي سالماً. ثم كرهت دارنا وعرفت الطريق إلى بيوت الأرامل. كنّ الوحيدات من يعرفن معنى النجاة والفرار. قالت لي إحداهن إن جدي يخشى النظر إلى عيني رجل لم يَقتُل أحداً. نصحتني أن أتوقف عن الحلفان، وقالت "القاتل يعرف القاتل

من رائحة إبطيه، وعندما تقتل فإن جدّك سيعرف وسيصدق دون أن تقول شيئاً". ولكني واصلت الحلفان حتى يوم هربي. لما علم جدّي أني عرفت الطريق إلى منازل الأرامل أقسم ليقطعنّ أيري. جاؤوا بي من بيت الأرملة والية، وهي حفيدة رجل قتله الأتراك لأنه فرّ من المعركة معهم. ألقوني في اصطبل الأبقار وجاء جدي بالسكين، ولما رأى ذلك الشيء حدق فيه هنيهة ثم عفى عنّي. لم ينظر قط إلى الإصابات التي ضربت روحي، ولا إلى أني صرت اليافع الوحيد في القرية كلها. كان يبحث عن الجروح في ساقيّ. ثم صار ينهرني "اقتلهم ولو بذيل الحمار الذي بين فخذيك، اقتلهم به إن كنت رجلاً". آليتُ على نفسي أن أكون رجلاً وأن أمضي في طريقي إلى أن أدرك الموتَ بنفسي. أقسمتُ لأجدنّه وأدوسه بقدمي. سأجد الموت وسأموت كما يموت البعير.

قضيت زهرة حياتي في الوادي ثم عدتُ مرّة أخرى إلى الجبل. من هنا بتّ قادراً على رؤية الحرب في كل مكان، رأيت قلبها لا أطرافها. رأيتها وهي تبتلع الرجال ورأيت الرجال وهم يبتلعونها. ورأيت تحولها في الفصول وكيف تصبح ضارية في مواسم الحصاد. خمسة أعوام من التحديق فيها، رأيت كيف تعبث بها الكواكب والنجوم وكيف تعبث هي بالكواكب والنجوم. ظننتُ أنني سأصبح قادراً على التحكم بمصائر الحرب لأني بتّ قادراً على مراقبتها واقتفاء أثرها. لم أفلح. عاشت الحرب في عيون أجدادي وانتقلت في الذرية حتى وصلت إلى عيني ابنتي غزلان. لم أعد أحتمل حديث

غزلان عن الحرب والسفن والمعارك، ولا رؤية الجبهات والكمائن في عينيها. كانت تبني سفناً من الورق حين كنّا في الوادي، أما الآن فأصبحت ترسم البندقية والمنجنيق والمدافع على السفن. حين تعرف أن ضيوفي من الشيوخ تدخل بالسفن وتعرضها للبيع. وإذا اجتمعت النساء في ديوان أمّها تعرض عليهن سفناً بلا مدافع، سفناً للفرار. سأفعل شيئاً من أجل ابنتي، وسأوقف هذه الحرب. سبعون سنة من الفرار من الحرب والآن سأستدير نحوها وأذهب إليها. أعلم أنها لن تقتلني ولا أعلم ما الذي ستفعله بأبنائي. حين تقرؤون هذه الرسالة ستعلمون لماذا حدثت الحرب التي سمعتم عنها. هذه المرة ستحدث من أجل أمر جلل، من الأجل الأبناء. كل حروب اليمنيين من أجل الآباء إلا هذه.

إذا لم تقتلنا الحرب في صبانا فلن تنال منا في الكِبَر. إلا أنها لن تتوقف عن إخافتنا. كلما كبرت غزلان يوماً لعنتُ الحرب ألف عام وأقسمت أن أفعل شيئاً ما حيالها.

الآن صرتُ أعرف تاريخي بعد أن زالت عنه الغشاوة التي تركها الخضر عليه السلام. جاء جدّي إلى القرية فارّاً من قبيلة أخرى، حيث كانت الحرب تأكل الأرواح كما يحلو لها. لم أعرف هذه الحقيقة إلا من خلال ما قالته لي قطرة الحبر. سئم جدّي في صباه من الحرب وترك قريته. مع الأيام وجد الحرب في القرية الجديدة. الحقيقة أنها كانت

قد سكنت دمه. لم تكن هناك من حرب في قريتنا ولا في القرى المجاورة لها. استخرجها جدي من ماضيه وأنجبها في أرضنا، ثم دفع كل الناس إليها. إذا لم يتخلص الرجل من الحرب في صباه فإنها ستخرج من جلده وتدور حوله. بنيتُ طاحونة وحفرت بئراً وألقيت الأشعار ورجوت الله أن أنسى. جلست إلى جوار الطاحونة وتركت هديرها ينسيني أصوات الماضي لكنها فعلت غير ذلك، أيقظت كل شيء. ربما لو أن الحرب أصابت جسدي لما دخلت إلى روحي وسكنت فيها. كان الناس في القرية يعزي بعضهم بعضاً ويقولون إن الرجل ينسى جروح الحرب، ثم ينسى الأيام التي جرح فيها، وبعد منتصف العمر لا يتذكر عن الحرب شيئاً. لم يقل أحدٌ أي شيء عن الذين لم تجرح الحرب أجسادهم، الناس الذين تركت الحرب جلودهم على ما هي عليه ودخلت إلى أرواحهم وأذاقتها سوء العذاب.

قالت جدّتي، قالت مرّة واحدة فقط، إن جدّي الأكبر انهزم في حرب ضد الرسول وفرّ إلى اليمن. كان يرمي النبال من على السور ثم ألقى بكل شيء وهرب. قضيت الليالي الطوال بحثاً عن تلك المعركة التي انهزم فيها جدي الأكبر، بحثت عنها في قطرات الحبر الصغيرة ثم في القطرات الكبيرة. بحثت عنها في الكتب ثم رأيتها في المنام. كان علي بن أبي طالب يقود عسكر المسلمين. لا أدري إن كان جدي يهودياً أو من عرب الحجاز، ولكن علي بن أبي طلب دحره وأخرجه من دياره. حاولت أن أفهم الأسباب التي

دفعت بن أبي طالب لشن تلك الحرب على جدّي وربعه ولم أجد سبباً واحداً. كان جدّي مؤمناً بالله، ومع ذلك فقد دفعوه للقفز من على سور في الحجاز والهرب إلى اليمن. ورثنا الحرب من جدي الأكبر، وكلما حوصرنا قفزنا من على الأسوار وهربنا إلى بلد آخر. كأنها تجري فينا مجرى الدم. لا أريد لابنتي أن تقفز في يوم من الأيام وتهيم على وجهها في الأرض. تسألني زوجتي إن كنت أريد أن أورث لأبنائي شيئاً فأقول لها أريد أن لا أورث لهم الحرب كما فعل أجدادي.

أريد أن أدفن تلك الأفعى قبل موتي.

أمس كنت أحدّث ابنتي غزلان عن تودد الجارية فأُخذتْ بذكائها وطلبت مني كتباً حول الأدب والشعر، وتمنّت مجلساً مثل مجلس تودد الجارية. هي الآن في العاشرة من العمر ولا تزال تصنع السفن. أمس قالت إنها حين تكبر ستهزم الفقهاء ثم الشعراء. وأنها ستفعل ما لم تفعله تودد الجارية: ستهزم قادة الجيوش. سألتها إن كانت ستتوقف عن صناعة السفن بعد ذهاب الإنجليز فقالت "إن وجدت شيئاً آخر انشغل به". ثم سألتني إن كانت تودد الجارية قد صنعت السّفن فقلت لها إنها كانت امرأة فرّت من الحرب على ظهر سفينة فوجدها المسلمون وأعطوها للسلطان. سألتني ولماذا للسلطان فقلتُ لها إنها عادة المسلمين على مرّ الأيام، كلما وجدوا

شيئاً جميلاً ذهبوا به إلى السلطان. ما قلته لها ألهب كبدي وعظامي، فلو متّ الليلة أو غداً فقد تهيم هذه الطفلة على وجهها كما فعلت الجارية تودد، وقد يأتي أناس ويذهبون بها إلى المنتصر. إن كان ملكيّاً فذلك سهمٌ في قلبي، وإن كان جمهورياً فتلك طعنة في الكبد.

أفكر كثيراً بمصير ابنتي.

كل الدنيا في قبضتي عدا ابنتي فهي في قلبي. قلت لها إذا هرب الإنجليز ارسمي القلاع والمساجد، وأخبرتها عن هزيمة جدّنا الأكبر وفراره فأطرقت رأسها وفكّرت بالقلاع. قالت لو كان لجدنا الأكبر قلعة لما اقتحمها علي بن أبي طالب. فوضعت يدي على رأسها وقلت لها لو كان لجدنا الأكبر قلعة لما اقتحمها علي بن أبي طالب. ثم تنبّهت لخطئي فقلت لها إن القلاع لا تكفي لصد الأعداء إذا تخلى عنك الرجال. سألتني "لماذا تخلى عنه الرجال؟" فقلت لها زعموا أنهم دخلوا في دين الله. فقالت ولماذا لم يدخل جدي معهم في دين الله؟ فقلت لها كان في دين الله يا ابنتي. كان في دين الله ولم يدر ما الذي عليه أن يفعله أكثر من ذلك. فآلى على نفسه أن يحمل النبال ويصعد إلى الأسوار.

لأجل غزلان سأفعل شيئاً، سأحاول أن أوقف هذه الحرب في مهدها. أرسلت إلى الشيوخ في كل مكان أدعوهم للاحتشاد عند مدخل وادي الخضر وقد وعدوني بالحضور. سيكون يوماً كأنه يوم الحشر، وسندخل مدينة تعز فاتحين، ثم سنفتح ما دونها من المدن. سنأخذ كل الرجال في طريقنا وسنمضي إلى بيت الداء وسنضرم النار في أجساد الجمهوريين والملكيين وسنخمد هذه الحرب. طلبت من الشيوخ أن يأتوني بالمَهَرة في كل شيء حتى الرّعيان. سيعمل الرعيان كأدلاء وصارخين، وسيحمل أبناؤهم المرافع والطاسات. الحرب صوت والرعيان لها. الطريق إلى صنعاء يمرّ عبر الجبال، سنصل إليها قبل رمضان. سنضع على كل أكمة راعياً حتى نصل إلى صنعاء. وإذا أردنا شيئاً فسيصيح كل راع بأعلى صوته حتى يسمعه الراعي الآخر على الأكمة القريبة إلى أن يصل الصوت من صنعاء إلى تعز في لمح البصر. الآن أجلس مع نفسي وأقول لها:

أنت ومالك لابنائك، أنت ومالك لابنائك.

نحن الآن في العاشر من صفر، هذا شهر لئيم مات فيه الرسول، وهو لا يصلح سوى للمكيدة. سنتمهّل حتى ينقضي الشهر. الآن سنسوق الحرب أمامنا كما نسوق المواشي ، الآن نسوقها ولا تسوقنا".

حرب الشيخ أحمد

تدفقت البنادق إلى القرية، أنفق الشيوخ أموالاً كثيرة عليها، حتى الذهب والأرض. كان الشيخ أحمد يرى كل ذلك من خلال قطرة الحبر، ولما تأكد أن الجبل قد غص بالبنادق دعا الشيوخ إليه. جاؤوا بمرافقيهم وبالبنادق على الأكتاف وكلما وصل وفد

أطلق رصاصة أو اثنتين في الهواء. جاؤا أفواجاً، ألقوا عليه السلام وعادوا. استمر الآمر أياماً عديدة. وكانت تُقى التي تمُت بعد ولا تزال تسعل تفزّ إذا ما سمعت البنادق وتستغيث بالحي القيوم. أما دولة فبقيت ساكنة في ديوانها، تسمع كل شيء ولا تقول. تتبادل النظرات الباردة مع ابنتها غزلان، الأم تخيط الأكمام وابنتها تصنع السفن. كانت الأم قد اتخذت قراراً منذ أعوام، وكانت لا تزال في الوادي، أنها إن سمعت أصوات البنادق فلن تقول شيئاً.

وفي ديوانه كان الشيخ أحمد يضع عمامته في حجره ويتدارس أفكاره وخططه مع أقرب الرجال إليه: الحاج زُط، والحاج محمد بن سعيد. لم يدنِ منه شيخاً، كان يخاف من خوف الشيوخ.

قال للرجلين، والناس في الخارج تجيء وتروح:

"من هنا رأيتُ الحرب كما خلقها الله " ثم توقف عن الكلام وأعاد وضع عمامته على رأسه.

يعرف الرجلان، مثل كل الناس، إن الشيخ أحمد يسكب قطرات الحبر على الأوراق ويرى العالم.

" لا ينبغي لبلادنا هذه أن تكون جمهورية ولا إمامية. سنجد لها اسماً آخر، وإن لم نجد لها اسماً سنتركها بلا اسم. كل الكون بلا اسم"

قاطعه محمد سعيد قائلاً:

"ما انهارت الدنيا إلا عندما اخترعنا الأسماء"

فقال الحاج زُط متوجساً:

"هذه بلاد، وستبقى بلاداً. هل البلاد التي بها مليون اسم بحاجة إلى اسم؟"

هز الشيخ أحمد رأسه وابتسم. ابتسم الشيخ أحمد. لما رأى الرجلان ابتسامته لم يدريا ماذا يفعلان.

تمهّل ريثما يسمع شيئاً من الرجلين غير أنهما كانا قد أُخِذا بابتسامته.

واصل حديثه وقال:

"سنصل إلى صنعاء، من هناك إلى عدن. سندحر الإنجليز. لن نفكّر بالإنجليز الآن، ولكن إذا فتحنا صنعاء فذلك يعني رضا الله عنّا وعن نوايانا"

"إذا نصرنا الله على الملكيين سينصرنا على الإنجليز" قال محمد سعيد، وبدا معجباً بملاحظته.

"أو الجمهوريين" قال الحاج زُط.

قال الشيخ أحمد:

"أو الملكيين"

وأعادها مراراً كما لو أنه كان ينتقم من الكلمة. ثم بعد أن استقر شيء ما في روحه أو في عينيه واصل حديثه وقال:

"سأحمل ابنتي غزلان على كتفيّ وأريها البحر خالياً من السفن. ستبيع سفنها على الرجال الذين ينظرون إلى البحر. ستكون أول من يطلق سفينة في بحر اليمنيين بعد هروب الإنجليز. سيشتري منها رجالنا السفن وسيطلقونها في البحر. ستبحر سفن غزلان بين الأمواج. ستطارد سفن الإنجليز حتى يبلغوا بحر الهند".

أُخِذ الحاج زُط مرّة أخرى بما سمعه ولم يجرؤ على قول شيء. أما محمد سعيد فكان مبتهجاً يتلفت يمنة ويسرة ويسأل عن عدد السفن التي صنعتها غزلان. لم يسمع الشيخ أحمد أسئلته. فما قاله عن سفن غزلان كان قد راعه هو شخصياً، وأكثر ما روّعه هو صمت صديقه الحاج زُط. نظر الرجلان إلى بعضهما، أراد الشيخ أحمد أن يستخرج من عيني الحاج زُط شيئاً ما ولكن تلك العينين أخفتا كل ما خطر على البال.

انصرف الضيفان بعد أن أطلعهما الشيخ أحمد على الخبر الأعظم.

في الصباح دخلت غزلان على والدها وسألته أن يريها الحرب. فما كان منه إلا أن هرع إلى نافذته الصغيرة وجلس، ولأول مرّة منذ زمن تلعثم وسال عرق بين كتفيه. تذكر أن له أنفاً معقوفة، ولا ندري لماذا قفزت تلك الفكرة إلى رأسه آنذاك. وقفت غزلان خلف ظهره وأمسكت بكتفيه قائلة أرني الحرب. أراها الحرب، كانت تتلألأ في قطرة الحبر كأنها يوم جمعة، وكانت عينا غزلان تلتهبان، حتى إن امرأة في أسفل الجبل صاحت يا ألله ولم تدرِ لماذا.

آخر ذلك النهار وقفت غزلان أمام والدها وقد صنعت له راديو من الورق، كان الراديو يشبه السفينة. رسمت على جوانب السفينة دوائر وخطوط، ولمّا سألها قالت هذه مدافع. ابتسم الشيخ أحمد للمرة الثانية في يومين. سأل ابنته "لماذا تضعين المدافع على ظهر الراديو؟" فقالت لكي لا يصل إلينا الغدر والكذب. لم يسبق للشيخ أحمد أن أمسك براديو، ولم تكن ابنته قد رأت ذلك الجهاز من قبل، ولكن ما صنعته غزلان في ذلك اليوم كان يعمل. وضع الشيخ أحمد داخل السفينة أو الراديو قطرة حبر وأنصت. جلست الطفلة إلى جواره وأنصتت مثله. لعلهما يسمعان شيئاً. بعد مضي وقت خرج صوت من الراديو، ولم يكن فيه من الأكاذيب سوى الشيء القليل. قفز

الشيخ أحمد إلى خارج الديوان وهو يسبّح الله ويثني عليه، وبقيت الطفلة في الداخل تستمع إلى صوت الراديو، وتفكّر "ماذا لو رسمتُ شجرة على الجانب الآخر".

لكنها خافت إن فعلت ذلك ورسمت الأشجار فإن المدافع ستحرق الأخضر واليابس.

الآن بمقدور الشيخ أحمد أن يسمع ويرى، وأن يتقي الأكاذيب.

جاء الناس إلى دار الشيخ أحمد وعادوا، ذهب الرسل إلى كل مكان ورجعوا بأفضل الأخبار. لم يعد أيّ من الرسل بالأخبار السيئة، حتى الذين قالوا لا قالوها على طريقة نعم. وهكذا فقد قال كل الناس نعم.

ثم تجمّع كل الرجال في الجبل وملؤا ما تحت السماء، وسمع لهم هدير يشبه هدير الحجيج. قال الناس إن هدير الرجال آنذاك كان عظيماً مثل هدير الحجيج، حتى أولئك الذين لم يعرفوا طريق الحجاز وهم أغلب الناس فقد ذكّرتهم الحشود بالحج. شعرت الكلاب بالقلق والغضب عدا عنتر الذي يختلف كل الاختلاف عن شعبه. فقد رأى في تلك الحشود البشرية فرصة لشيء ما رائع وعظيم وجلس يسأل نفسه. اختلطت روائح القرى وساقت السحاب رائحة غريبة من واد بعيد. كان الشيخ أحمد ينظر إلى الحشد من على سطح منزله ولا يدري ما الذي عليه أن يقوله. همس الشيخ

زُط في أذنه، ولكن أحمد كان مأخوذاً بماضيه. وقفت الطفلة غزلان إلى جوار أبيها وسألته إن كان يرى ما تراه فنظر الرجل في عيني ابنته ورأى.

كانت الشمس قد تجاوزت جبل التين، وهو أحقر الجبال. عند ذلك صاح محمد سعيد بأعلى صوته "على بركة الله". وصاح رجلان من الذين يقفون أمام الدار "على بركة الله"، وقفزت الكلمة من فم إلى فم حتى بلغت جبل التين وما بعده وساقت الناس إلى الطريق.

نزل الرجال من الجبل يركضون ويصيحون، الذين في المقدمة قالوا إنهم سيقتلون الجمهوريين، الذين في الوسط قالوا إنهم سيسحقون الملكيين، والذين في المؤخرة كانوا يركضون والشرر يتطاير من أعينهم، وقد آلوا على أنفسهم أن يذهبوا إلى أبعد الأودية وأقصى المُدن ولم يكن أحد قد أخبرهم لماذا.

بقي الشيخ أحمد على سطح داره وكان قادراً على أن يرى المقدمة والمؤخرة دون عناء. رأى رجال الجبل وهم يقتحمون مدينة تعز. نزل إلى ديوان زوجته فوجدها هناك واجمة، تخيط الأكمام ولا تقول شيئاً. نظر إليها وتبسّم. أراد أن يراها في تلك الساعة، يراها وقد صار اسمها دولة. قالت له "اجلس"، فغادر ديوان زوجته وهو يتمتم لا إله إلا الله، ما أعظم الدولة. على سطح داره وقف ينظر في الخلائق. قالت غزلان، وهي

تنظر إلى حيث ينظر والدها، إنهم حملوا المدينة على أكتافهم ومضوا في طريقهم. قال محمد سعيد إنها ثقيلة على أكتاف أهل الجبل، وقال الشيخ زُط وقد استعاد اسمه القديم: لا جدوى من حمل كل المدن على الأكتاف، من الأفضل أن يتركوها للرعيان. انخرط الجمهوريون في الصفوف الغاضبة وكانوا يحلفون بأعلى الأصوات. توافدت قرى كثيرة، وتقافز الحفاة على الجوانب، وقال حاكم المدينة عندما رأى الحشود هيا بنا، فسأله مرافقوه إلى أين؟ فتوقف الرجل في مكانه ونظر في عيون مرافقيه وغمغم هيا بنا، وكانوا يقولون هيا بنا. وبعد أيام خرج إلى المكان ذاته ومعه رجاله وكانوا يقولون هيا بنا، ولم تعد هناك من حشود. ولكن الرعيان الذين أوكلت إليهم شؤون المدينة ضربوا مؤخراتهم وشتموا أمهاتهم. وكان بين مرافقي الحاكم رجل مليح نالت أمّه أفضل الشتائم. أثارت تلك الشتائم حاكم المدينة فأرسل الغلام في اليوم الثاني إلى المكان ذاته وطلب منه أن يصيح هيّا بنا بأعلى صوته، ولكن رعاة الأمس كانوا قد ذهبوا وجاء آخرون من رعاة الوديان.

اتخذ الشيخ أحمد من داره مركزا لإدارة تلك الحرب الكبرى، وإلى جواره جلس الرجلان محمد سعيد والحاج زُط الذي استعاد اسمه القديم.

"ادخل صنعاء بالشيخ مُحسن، وعدن بالحاج زُط"

قال محمد سعيد مداعباً، فضحك الحاج زُط بصوت عال لأول مرة في الجبل .

اقترح الحاج زُط الإبقاء على اسم الجمهورية ولكن الشيخ أحمد نهره قائلاً نحن مساكين لا علاقة لنا بتلك القصص، هذه بلادنا.

تردد الحاج زُط، ثم تساءل مرتبكاً:

"سيصل رجالنا إلى صنعاء قبل رمضان، ألا تلاحظ يا شيخ أحمد أننا لم نعطهم الاسم؟ سيصلون صنعاء وليس معهم اسم لها؟".

تمتم الشيخ أحمد:

"أرسلناهم ونسينا أن نعطيهم الاسم؟"

تدخل محمد سعيد وقال:

"المهم أن يصلوا إليها بالسلامة، أما الاسم فسيجدونه في طريقهم، لصنعاء وللبلاد كلها."

قال الحاج زُط محتداً، وكاد أن يُسمع الرجل واحدة من كلماته التي لا يحتملها سوى المُسافرين:

"هذي بلاد يا بن سعيد، هذي بلاد"

قال الشيخ أحمد وهو يحك ذقنه، ودون أن ينظر إلى الرجلين:

"سنغير صنعاء إلى مدينة الخضِر عليه السلام".

ثم غمغم مطولاً وتساءل ما إذا كان ذلك ضرورياً.

"إلا ضروري يا شيخ أحمد"

قال الحاج زُط مستعجلاً وأقسم بالله على أن الاسم نصف المعركة.

ثم تساءل الحاج زُط:

"وماذا عن البلاد كلها، البلاد كلها يا شيخ أحمد ماذا سنسميها؟"

"سنسميها البلاد"

قال الشيخ أحمد.

"سنسميها البلاد"

ردد الحاج زُط.

"على بركة الله، البلاد البلاد"

قال محمد بن سعيد وقد شعر بالسعادة لأول مرّة منذ الصباح. كما لو أن الاسم كان يؤلمه وهو لا يعلم.

انطلق الجبليون شمالاً، دخلوا القرى وحملوها على الأكتاف، دخلوا المدن ودسوها في نعالهم، وسرعان ما كانت تسقط منهم لأن أغلبهم حفاة. ساقوا المواشي في الهضاب والمرتفعات ثم تركوها للأمطار، وكلما غربت الشمس أطلقوا الرصاص إلى السحب. مرّت الأيام والجبليون يزحفون ويزمجرون، وقد آلوا على أنفسهم أن يدخلوا صنعاء أولاً ثم عدن، وأن يجعلوا الملكيين والجمهوريين أحاديثَ، وأن يركضوا خلف الإنجليز إلى الهند.

لا يعرف الجبليون أين هي صنعاء، ولا يعرف الشيخ أحمد. الذين كانوا في المؤخرة قالوا إنهم سمعوا صوت الشيخ أحمد وهو يوصيهم "لا تذهبوا باتجاه البحر". لكن الجبليين الذين في المقدمة تصايحوا وقالوا إن المهم هو أن يجدوا صنعاء حتى وإن كانت على البحر. بحثوا عنها. مرّت الأيام. ثم مرت السنوات. الجبليون يتقافزون في الجبال مثل الجن والأمطار. إذا رأيتهم وهم يتقافزون، وكلما تجاوزوا جبلاً لحسوا أقدامهم وزأروا، فستعرف أنهم الجبليون الذين خرجوا من ديارهم قبل سنوات طويلة بحثاً عن صنعاء ولم يجدوها. واصلوا سيرهم، وتعرّفت عليهم أمطار الخريف وسحب

القرى. حلبوا كل إبل الدنيا وهم في طريقهم. ماتت نساؤهم البعيدات الواحدة تلو الأخرى وهم هناك يتقافزون ولا يموتون. الذين في المقدمة يتوعدون الجمهوريين والذين في المؤخرة يقولون إنهم سيفعلون الأفاعيل بتلك الجماعة من الناس التي نسيوا اسمها.

مرّت عليهم السنوات الطويلة والسنوات القصيرة. لم ينهزموا قط، ولن ينهزموا. ليس لأنهم يحملون معهم ما يكفي من البنادق، ولا لأن الشيخ أحمد يحرسهم من قريته ويؤخّر موته من أجلهم، بل لأنهم ذاهبون إلى صنعاء.

ومن يذهب إلى صنعاء لا يُهزم قط،

ولن يجدها أبداً.

13.10.2020